إيمان فرعون

للإمام جلال الدين الدواني

والرد عليه

للعلامة علي بن سلطان محمد القاري

وتأييد سيدي محيي الدين بن عربي للإيمان

حققه وضبطه وحل مشكله
ابن الخطيب

المطبعة المصرية ومكتبتها
أسسها محمد محمد عبد اللطيف ابن الخطيب
عام ١٩٢٤
سوق الأوقاف بأمير شريف بعابدين
تليفون ٩٠٠٥٣٨

إنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا

حُقوقُ الطَّبْعِ مَحْفُوظَة

[الطبعة الأولى]

١٣٨٣ هجرية - ١٩٦٤ ميلادية

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، والصلاة والسلام على خاتم المرسلين ، وإمام المتقين ، وخيرة الله تعالى من الخلق أجمعين ، وعلى آله وصحبه والتابعين !

أما بعد : فانه مما لاشك فيه أن رحمة الله تعالى قد وسعت كل شيء ، وأنها قريب من المحسنين ، بنص الكتاب المستبين ، ولكنه تعالى كتبها لعباده المتقين ، وقيدها بالايمان واتباع الرسول الأمين[1] !

ومن المعلوم ـ عقلا ونقلا ـ أن فرعون كان من أئمة الكافرين ، وأنه « يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود[2] » وأنه ممن كتب لهم الخلود فيها ؛ وهل بعد ادعاء الألوهية من جرم ؟[3] وقتل الضعفاء والأبرياء من إثم ؟[4]

---

(١) قال تعالى « ورحمتي وسعت كل شيء ؛ فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون » آية ١٥٦ من سورة الأعراف . وقال جل شأنه « ان رحمة الله قريب من المحسنين » آية ٥٦ من سورة الأعراف (٢) آية ٩٨ من سورة هود

(٣) قال تعالى « وقال فرعون يا أيها الملأ ماعلمت لكم من إله غيرى » آية ٣٨ من سورة القصص « فحشر فنادى ، فقال أنا ربكم الأعلى » آية ٢٤ من سورة النازعات

(٤) قال تعالى « قال سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم » آية ١٢٧ من سورة الأعراف

هذه هى عقيدة العامة والخاصة فى فرعون ، يؤيدها الكتاب المبين ، وما ورد عن رسول رب العالمين .

ولم يقف إجماع الأمة الإسلامية عند الإيمان بكفر فرعون فحسب ؛ بل تعدى ذلك إلى الاعتقاد بأن ذمه ولعنه من القربات إلى الله تعالى ، وأنه صنو إبليس اللعين ؛ إذ سار على هديه فى محاربة ربه ، ومجاهرته بالعصيان والطغيان ؛ واتبع طريقته فى إيذاء عباد الله !

بل إن فرعون يفوق إبليس إيذاء وإغواء ؛ لأنه يكره الناس على عبادته بالتعذيب والتقتيل[١] ، والنفى والتشريد ؛ فى حين أن إبليس لم يعدُ التزيين والاغواء والوسوسة والتضليل[٢] !

وقد توارث هذه العقيدة الآباء عن الأجداد ، فما ذكر فرعون فى مجلس إلا وتبعه السخط ، وشيعت ذكراه اللعنة !

هكذا اعتقدت ، بل هكذا اعتقدت الأمة الإسلامية جمعاء ، ولم يشذ عن هذا الإجماع واحد من المفكرين أو غير المفكرين ، ممن ينتسب إلى العلم أو لاينتسب ، وينتمى إلى الدين أو لاينتمى .

هـــذا وقد كان عصاة الأمة أشد بغضاً لفرعون من تقاتها ، وعامتها أشد تكفيراً له من سراتها .

وبينا أنا أقرأ فى كتاب « فصوص الحكم » لسيدى محي الدين بن عربى ،

---

(١) قال تعالى حكاية عن فرعون « لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين » آية ٤٩ من سورة الشعراء

(٢) قال تعالى حكاية عن إبليس « لأزينن لهم فى الأرض ولأغوينهم أجمعين » آية ٣٩ من سورة الحجر ، وقال «ولأضلنهم ولأمنينهم » آية ١١٩ من سورة النساء

إذا به يقول قولا جازماً، بإيمان فرعون إيمانا لازماً، وأنه قد لقى ربه طاهراً مطهراً، سالما من العيب، بريئاً من الذنب. فواصلت بحثى وتنقيبى وراء هذا الرأى، علنى أجد مؤيداً له بين السابقين أو معارضا، فوجدت فى دار الكتب المصرية رسالة خطية للعلامة جلال الدين الدوانى؛ تقول بما قال به سيدى محي الدين، وتؤيد ماذهب اليه، ووجدت رسالة أخرى ترد على رسالة الدوانى؛ للعلامة على بن سلطان محمد القارى، أسماها «فر العون، من مدعى إيمان فرعون» فرأيت أن أسوق هذا البحث للقارئ، فقد يجد فى قراءته متعة للروح والنفس، وقد يجد فيه مايرتاح اليه، من شد وجذب، ومقارعة حجة بحجة، ودليل بدليل.

فاذا ماخرج القارئ من هذه المصارعة الفكرية الطلية: مقتنعا بإيمان فرعون ونجاته: فلا بأس عليه، ولا اتهام لعقيدته، وإذا ظل تفكيره مصراً على تكفيره، فعلى ذلك جل المسلمين، بل كلهم.

وما أحلى أن يستمع المؤمن لبعض صفات ربه وخالقه، ومنشيه ومنجيه، فهو جلت عظمته، وتعالت قدرته، كما اتصف بدقة الحساب، وشدة العقاب، فقد اتصف بمزيد الرأفة، وواسع الرحمة! وكما اتصفت ناره بالعذاب الأليم، فقد اتصفت جنته بالنعيم المقيم! وكما اتصف — جل شأنه — بشدة الأخذ، فقد اتصف بكثرة العفو!

وكم من إنسان قام ليله وصام نهاره، وسخر ممن يعصون الله، ورأى الجنان رأى العيان: فاذا هو ملقى فى النار! وآخر اقترف الشهوات (١) واستمرأ الملذات، وكان من النار قيد خطوات. فاذا بالمغفرة تحوطه، والرحمة

---

(١) اقترف: اكتسب، واقترف الذنب: أتاه وفعله.

نعمه ، والرضا يغمره ! ولا بدع فلا حرج على فضل الله ، ولا راد لما أراده وقضاه !

وما أحسن قول العارف بالله : سيدى عبد الغنى النابلسى[1] رضى الله عنه :

رب شخص تقوده الأقدار   للمعالى ، وما لذاك اختيار
غافل ، والسعادة احتضنته   وهو منها مستوحش نفار
يتعاطى القبيح عمداً ، فيلقا   ه جميلا ، وفلسه[2] دينار
كلما قارف الذنوب : أتته   توبة طهرته ، واستغفار
وعليه - إن زل - عين من اللـ   ـه تقيه ، ويستر الستار !
فهو بالله دائما يترقى ،   لا به[3] حيث تشرق الأنوار !

✡ ✡ ✡

وفتى[4] كابد العبادة حتى   منه قد مل ليله والنهار

---

(١) سيدى عبد الغنى النابلسى : من كبار الصوفية ، وكان من علماء الدين والفقه والأدب ، وله تصانيف عدة ، منها « الحضرة الانسية فى الرحلة القدسية » و « نفحات الأزهار على نسمات الأسحار » و « قلائد المرجان فى عقائد أهل الايمان » و « كنز الحق المبين فى أحاديث سيد المرسلين » و « تعطير الأنام فى تعبير المنام » وغيرها مما لا حصر له . ولد عام ١٦٤١ فى دمشق ، وتوفى بها عام ١٧٣١ ميلادية ؛ بعد تنقله فى شتى البلاد : بغداد ، ولبنان ، وفلسطين ، ومصر ، والحجاز .

(٢) الفلس ؛ ويجمع على أفلس وفلوس : هو عملة عربية الأصل ، يتعامل بها أهل العراق ، وهى كالمليم عندنا

(٣) لا به . أى لا يترقى بنفسه وبمجهوده الشخصى بل بالله تعالى ، حيث تشرق أنوار العناية ، وتلوح أعلام الهداية ، فتزول بوادر العماية ، وتنمحى أسباب الغواية ! قال تعالى « ثم تاب عليهم ليتوبوا » آية ١١٨ من سورة التوبة

(٤) وفتى : أى ورب فتى ؛ لأنها معطوفة على أول الأبيات (رب شخص)

يتسامى بالذكر والفكر قصداً — وهو ناء، وعنه شط المزار[1]
يفعل الخير، ثم يلقاه شراً — وإذا رام جنة فهى نار!
حكم حارت البرية فيها؛ — وحقيق بأنها تحتار!
وعطايا من المهيمن، دلت — أنه الله: فاعل مختار[2]!

فاذا مالاح لنا بريق الايمان على إنسان، فليس لنا أن نحجر على فضل الله تعالى، أو أن نضيق ماوسعه، من مزيد رحمته، ووافر مغفرته!

وليس معنى ذلك: أنى أؤيد من ذهب إلى القول بايمان فرعون، أو أن أثق بصدق إيمانه، فأنا ـ كما قدمت ـ إن طاوعنى لسانى، فلن يطاوعنى جنانى. ولكنى سقت الدليلين، مكتفيا بالرد على أيهما ـ إذا مال أو حاد ـ غير ناظر لتأييده أو تفنيده. وللقارئ وحده أن يوازن بينهما، ولا حرج عليه فى اختيار أيهما، مع التسليم لله تعالى، والإنابة اليه، والتوكل عليه!

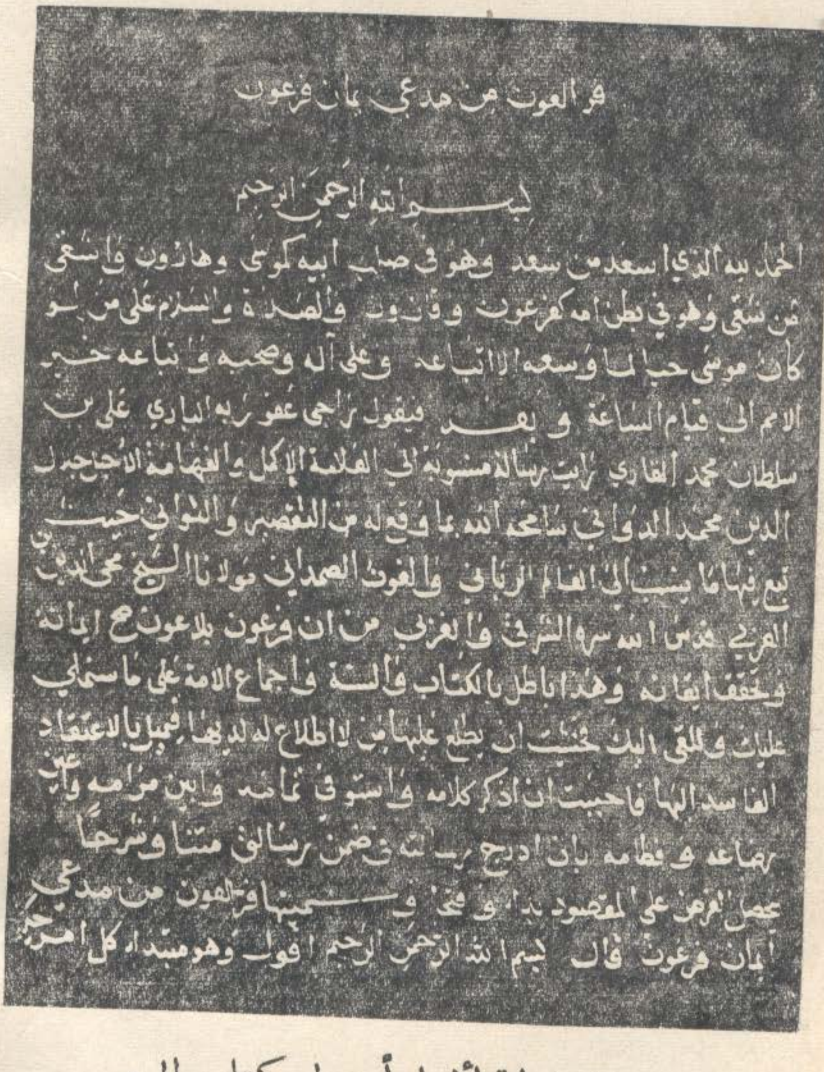
والله أسأل أن يعصمنا من الخطل والزلل، وأن يجعلنا من الناجين من عذابه، الآمنين يوم حسابه، الثابتين على كلمة التوحيد، فى السر والإعلان، وبالقلب واللسان؛ إنه سميع الدعاء، مجيب الرجاء، واسع العطاء! «يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة» وهو حسبى ونعم الوكيل؟

محمد محمد عبد اللطيف ابن الخطيب

رمضان ١٣٨٣
فبراير ١٩٦٤

---

(١) شط المزار: بعد
(٢) قال تعالى «وربك يخلق مايشاء ويختار ما كان لهم الخيرة»

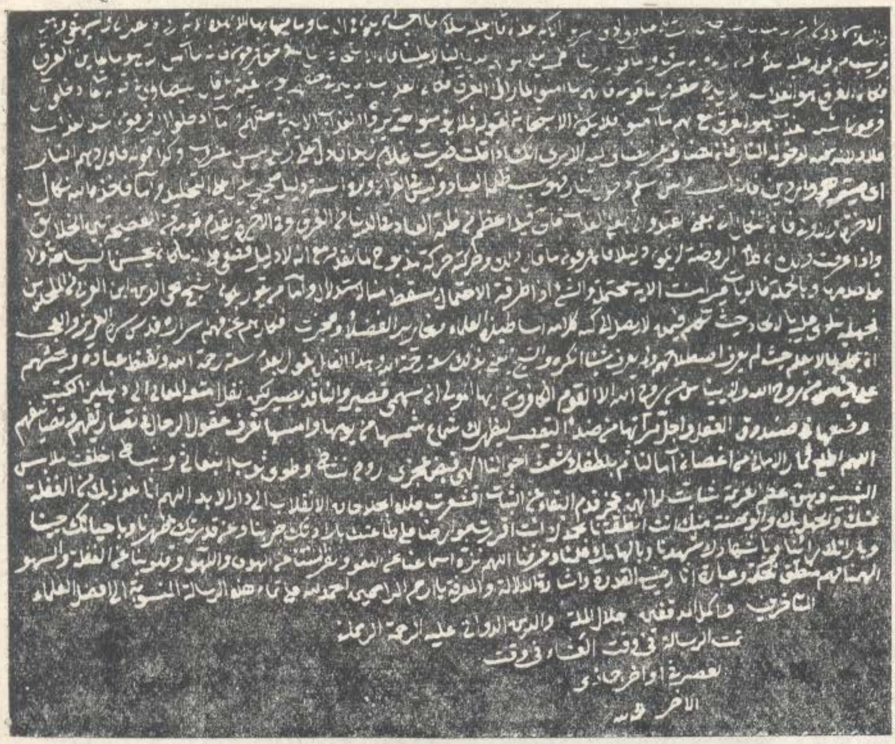


فر العون من مدعي ايمان فرعون

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي اسعد من سعد وهو في صلب ابيه كموسى وهارون واشقى
من شقي وهو في بطن امه كفرعون وقارون والصلاة والسلام على من لو
كان موسى حيا لما وسعه الا اتباعه وعلى آله وصحبه واتباعه حزب
الامم الى قيام الساعة وبعد فيقول راجي عفو ربه الباري علي بن
سلطان محمد القاري رايت رسالة منسوبة الى العلامة الاكمل والفهامة الاجل جلال
الدين محمد الدواني سامحه الله بما وقع له من التعصب والتواني حيث
تبع فيها ما نسب الى العارف الرباني والغوث الصمداني مولانا الشيخ محي الدين بن
العربي قدس الله سره الشريف والعزبي من ان فرعون بلا عون صح ايمانه
وتحقق ايقانه وهذا باطل بالكتاب والسنة واجماع الامة على ما سيملي
عليك والقي اليك فخشيت ان يطلع عليها من لا اطلاع له لديها فيبتلى بالاعتقاد
الفاسد اليها فاحببت ان اذكر كلامه واستوفي تمامه وابين مرامه واعين
رضاعه وعظامه بان ادرج رسالته في ضمن رسالتي متنا وشرحا
ليحصل الغرض على المقصود بداء وختما وسميتها فر العون من مدعي
ايمان فرعون قال بسم الله الرحمن الرحيم اقول وهو مبتداء كل امر

صورة خطية لأول أصول كتاب الرد


المتأخرين واكمل الدين فقيه جلال الملة والدين الدواني عليه الرحمة الرحمن
تمت الرسالة في وقت الغداة في وقت
العصر في أواخر جمادى
الآخر

صورة خطية لخاتمة أصول الكتاب



صورة خطية لأول أصول الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

وهو الهادى الى الصراط المستقيم[1]

الحمد لله : قابل توبة عبده إذا تاب ، لاسيما ويفرح بتوبته كما ورد عن سيد الأحباب !

والصلاة والسلام على سيدنا محمد والآل والأصحاب !

أما بعد : فقد سألني من إجابته على فرض عين ، ومنزلته فى أعلى منازل السالكين : سلالة السلف الطاهر ، والجناب الفاخر ؛ ذو العزة والدين ، روّح الله روحه فى العالمين ؛ أن أكتب على قوله تعالى : « قال آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين » الآية[2] . فأجبت إلى ذلك ، وكتبت فى غابر الزمان حسب ماظهر من غير تقليد ؛ ثم عنّ لى أشياء من فيض المولى الحميد ، فأحببت الزيادة فى الكلام العربى ، ليظهر به الرد على من قال بتكفير مولى العلماء ، وتاج الأولياء : مولانا الشيخ محيي الدين ابن العربى[3] . والطعن فى كلامه ، وزيادة الكلام لافائدة فيه فى ملامه ، فأقول وبالله التوفيق :

---

(١) لم توجد هذه الجملة فى النسخ التى بأيدينا ؛ وقد وجدناها فى الرد فأثبتناها

(٢) آية ٩٠ وما بعدها من سورة يونس

(٣) محيي الدين ابن العربى : هو إمام الزهاد وشيخ الواصلين ، وقدوة الصالحين ، الشيخ الأكبر : محمد، بن علي، بن محمد، الحاتمى، الطائى، الأندلسى، الملقب بمحيي الدين بن عربى. =

إعلم يا أخي وفقني الله وإياك طريق الصواب ، وجنبني وإياك عن مسالك التعصب والاعتصاب ؛ أن علماء الإسلام ، وأهل الولاية والاحتشام ؛ قد

= وهو أكبر علماء الصوفية بلا منازع ؛ كان رضي الله تعالى عنه عالماً ربانياً ، وقطباً صمدانياً ؛ من أئمة المتكلمين ، وكان يقول بوحدة الوجود ، وكان يعتمد في جل كلامه على الرمز والاشارات ؛ عما يستعصي إدراكه على العقول والأفهام ؛ الغير المستمدة من الذوق الوجداني . وهو أيضاً من كبار الجبرية .

ومن العجيب أنك بينما تراه يقول بالجبر الصارخ ، إذا بك تراه — في بعض أقواله — يقول بأن العبد مسئول عن أعماله — خيرها وشرها — ولعل له مندوحة في تأول بعض آيات الكتاب الكريم .

هذا والتفسير الحرفي لكلام ابن عربي يفسد معناه ، ويخرجه عن روحانيته التي أضفاها عليه ؛ ويعتبر أن المفهوم الظاهر هو عقيدة العوام ، أما عقيدة الخواص فلها المفهوم الباطن الذي لا ينكشف إلا للقليل .

وله رضي الله تعالى عنه كتب تجل عن الحصر ؛ يبلغ ماعرف منها زهاء الأربعمائة . منها الفتوحات المكية ، ومحاضرة الأبرار ، وفصوص الحكم ، ومفاتيح الغيب ، والإسرا الى المقام الأسرى ومشاهد الأسرار القدسية ، والحق ، والوعاء المختوم ، والتجليات الإلهية ، ومرآة المعاني ، وروح القدس ، وشرح أسماء الله الحسنى ، واللمعة النورانية ، والتجليات ، والتدبيرات الالهية في المملكة الانسانية ، وكلها تشهد له بالوصول ، وطول الباع ، والامداد الرباني .

وله شعر عجيب، يحار فيه اللبيب ؛ جله - إن لم يكن كله - في التصوف . ومن بديع شعره :

الله قل ، وذر الوجود وما حوى إن كنت مرتاداً بلوغ كمال

فالكل - دون الله - إن حققته عدم على التفصيل والاجمال

من لا وجود لذاته من ذاته فوجوده والله عين محال

ومن عجيب شعره ؛ الذي يدل على أن كلامه له ظاهر وباطن ، وأن باطنه أبين من ظاهره ؛ قوله :

يامن يراني ولا أراه كم ذا أراه ولا يراني =

اختلفوا فى إيمان فرعون موسى عليه السلام[١]، فمنهم من طوقه طوق الكفران والطغيان ، ومنهم من أدخل عنقه فى ربقة الإيمان[٢] ، إلى يوم الجزاء والإحسان. والحق أن الآية الكريمة مصرحة بالإيمان، من غير مانع : منطوقا ومفهوما ؛ فان « لا » لنفى حكم الجنس، والخبر محذوف ، والتقدير : « آمنت أنه » أى بأنه « لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل »

= فلما ألحفوا فى سؤاله عما يعنيه بهذا القول ؛ قال :

« يامن يرانى » مجرماً   « ولا أراه » آخذا

« كم ذا أراه » منعما   « ولا يرانى » لائذا

ومن شعره أيضاً :

ومن عجب أنى أحن اليهم   وأسأل شوقا عنهم ؛ وهم معى

فتحجبهم عينى ؛ وهم فى سوادها   ويشكو النوى قلبى؛ وهم بين أضلعى !

وليس العجب أن يحن ، ويسأل ، ويشتاق ؛ إلى من هم معه . ولا أن تحجبهم عينه ؛ وهم فى سوادها ، ولا أن يشكو قلبه بعدهم ؛ وهم ساكنون فى فؤاده ، وبين أضلعه !

وإنما العجب كل العجب ممن لا يفهم هذه العبارات ، وتلكم الاشارات ؛ فلا يجد متنفساً لجهله بها : إلا تكفير قائلها !

وقد رووا — فيما رووا عنه — أنه ضرب الأرض برجله ؛ وقال لمن حوله : معبودكم تحت قدمى . فهاجوا وماجوا ، وقالوا بكفره على قوله ! ولم يمض كبير وقت حتى وجدوا فى هذا المكان ذهبا مدفونا .

وكراماته — رضى الله تعالى عنه — أجل من أن تحصى ، وأكثر من أن تستقصى !

فمن ذلك قوله — حال حياته — إذا دخل السين فى الشين : ظهر قبر محيي الدين .

وقد دخل السلطان سليمان الشام : فبنى قبر سيدى محيي الدين ، وأوقف عليه أوقافا طائلة ؛

(١) فرعون موسى : هو الوليد بن مصعب . وفرعون : لقب لكل عات متمرد . وتفرعن تخلق بخلاق الفراعنة ، فى القسوة والجبروت . والفرعون : التمساح . وقالوا : إن فرعون : لقب لكل من ملك مصر .

(٢) الربقة : العروة . والمراد بربقة الايمان : عقده

والمعنى : صدّقت وتيقنت أنه لامعبود بالحق فى الوجود إلا الله الذى آمنت به بنو إسرائيل ؛ والذى آمنت به بنو إسرائيل : هو المعبود بالحق الذى جاء به موسى وهارون عليهما السلام .

فقد حصر إيمانه فى المعبود بالحق - منطوقا ومفهوما - وأنه قال ذلك بقلبه ؛ مصمما على ذلك ، ونطق بلسانه .

أما النطق باللسان : فهو ظاهر ، وأما الإيمان بالقلب : فبشهادة الجملة الفعلية ؛ التى هى « آمنت » المؤكدة بمضمون الجملة الإسمية ، و« أنا » واللام[١] المؤكدة بالجملة الإسمية ؛ التى هى « وأنا من المسلمين »

فمن له طبع سليم ، وعقل مستقيم : يعلم أن هذا القول ؛ إنما قاله عند استقامة العقل ؛ لا أنه حالة الغرق عند غمر الماء أو غشيانه .

وقد قال المحققون من المتكلمين : إن الإيمان هو التصديق بالقلب ، وإن الإقرار باللسان لاجراء الأحكام ؛ فكيف من صدق بجنانه ، ونطق بلسانه ؛ ثم اخترمته المنية[٢] بعد ذلك . وهذا معنى قول الشيخ[٣] فقبضه عند إيمانه قبل أن يكتسب شيئاً من الآثام ؛ فإنه لم يعش بعد ذلك ، والإسلام يجب ماقبله[٤] أى فى حق الخالق ، دون الخلائق !

فانه قدس سره لم يجهل ذلك ؛ لتقييده بذلك .

---

(١) واللام : أى لام التعريف فى « المسلمين »

(٢) اخترمته المنية : أخذته . والمعنى : عاجله الموت .

(٣) أى قول سيدى محي الدين بن العربى ؛ الذى سيأتى ذكره بتمامه فى تعليقاتنا ؛ نقلا عن كتابه « فصوص الحكم »

(٤) يجبّ ماقبله : أى يقطع ماسبقه من الكفر والآثام .

ثم قال : وجعله آية[1] على عنايته سبحانه لمن شاء ؛ حتى لاييأس أحد من رحمة الله تعالى ؛ أخذاً من قوله تعالى « قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم[2] » وشيد أركانه بقوله « إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون[3] » فلو كان فرعون ممن يئس : مابادر إلى الإيمان[4]

---

(١) لعله أراد بذلك قوله تعالى « فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية » آية ٩٢ من سورة يونس

(٢) آية ٥٣ من سورة الزمر .

(٣) آية ٨٧ من سورة يوسف

(٤) ونص ماجاء فى كتاب « فصوص الحكم » لابن العربى : إن امرأة فرعون قالت لفرعون فى حق موسى « قرة عين لى ولك » فبه قرت عينها : بالكمال الذى شهد به لها الرسول صلوات الله تعالى وسلامه عليه . وكان قرة عين فرعون : بالايمان الذى أعطاه الله تعالى له عند الغرق ، فقبضه طاهراً مطهرا ؛ ليس فيه شىء من الخبث ؛ لأنه تعالى قبضه عند إيمانه ؛ قبل أن يكتسب شيئاً من الآثام ؛ والإسلام يجب ماقبله .

وجعله آية على عنايته سبحانه بمن شاء ؛ حتى لاييأس أحد من رحمة الله ؛ فـ « إنه لاييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » فلو كان فرعون ممن يئس . مابادر إلى الإيمان !

ثم قال بعد ذلك : وأما قوله تعالى « فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التى قد خلت فى عباده » وقوله جل شأنه « فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين » فلم يدل ذلك على أنه لاينفعهم فى الآخرة ؛ لقوله تعالى فى الاستثناء « إلا قوم يونس » فأراد أن ذلك لايدفع عنهم الأخذ فى الدنيا ؛ فلذلك أخذ فرعون مع وجود الإيمان منه . هذا إن كان أمره أمر من لم يتيقن بالانتقال فى تلك الساعة .

وقرينة الحال تعطى أنه ما كان على يقين من الانتقال ؛ لأنه عاين المؤمنين يمشون فى الطريق اليبس ؛ الذى ظهر بضرب موسى بعصاه البحر ؛ فلم يتيقن فرعون بالهلاك إذ آمن ؛ بخلاف المحتضر ؛ حتى لايلحق به : فآمن بالذى آمنت به بنو إسرائيل على التيقن بالنجاة ؛ فكان كما تيقن — لكن على غير الصورة التى أرادها — فنجاه الله تعالى من عذاب الآخرة =

وهذا كلام صدق ، وأسلوب حق ؛ وما يجهله إلا من لايعرف أساليب الكلام .

والدليل على قبول الايمـان : قوله « آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين[١] » للقاعدة البيانية : وهى إذا كان هناك نفى وقيد : تسلط النفى على القيد ورفعه .

وعلى هذا فالهمزة للإنكار، والإنكار بمعنى النفى ، فيكون المعنى : ماعصيت الآن ، بل جب[٢] إيمـانك عصيانك ؛ فيكون نفياً للقيد .

ويجوز أن يكون القيد : قيداً للنفى .

والمعنى : حالة عصيانك لم تـكن ؛ بل زالت بإيمـانك .

= فى نفسه « ونجى بدنه ؛ كما قال تعالى « فاليوم ننجيك ببدنك لتـكون لمن خلفك آية » لأنه لو غاب بصورته ؛ ربمـا قال قومه : احتجب .

فظهر بالصورة المعهودة ميتاً ؛ ليعلم أنه هو : فقد عمته النجاة حساً ومعنى .

ومن حقت عليه كلمة العذاب الأخروى : لايؤمن ولو جاءته كل آية حتى يرى العذاب الأليم . قال تعالى « إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لايؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم » أى حتى يذوقوا العذاب الأخروى » !

فخرج فرعون من هذا الصنف هذا هو الظاهر الذى ورد به القرآن .

(١) الظاهر من السياق : أن المعترض على إيمـان فرعون بقوله « آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين » هو أحد الملائكة ؛ ومن المعلوم أنه لا احد من المخلوقين يملك إدخال أحد فى رحمة الله تعالى ، أو إخراجه منها ؛ بل مآل الكل اليه تعالى : إن شاء أخذ وإن شاء عفا . وعفوه جل شأنه يسبق أخذه ، ورحمته تسبق عذابه ، ومغفرته تسبق غضبه !

(٢) جب : قطع .

وإذا صح إيمانه عقلا من غير معارض قطعى : حكم بما قاله الشيخ قدس سره[١] ، ومن نحا نحوه ؛ بأنه صحيح لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه[٢]

وأيضا قال ابن هشام فى المغنى[٣] :

الأول : الإنكار الإبطالى ؛ يقتضى أن مابعد الهمزة غير واقع ، وأن مدعيه كاذب . نحو « فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون[٤] ؟ »

والثانى : الإنكار التوبيخى ؛ يقتضى أن مابعده واقع ، وأن فاعله معلوم. نحو « أتعبدون ماتنحتون[٥] » انتهى .

---

(١) أى بما قاله سيدى محي الدين بن عربى ، والذى أورد المصنف بعضه ، وأوردناه بتمامه فى التعليقات السابقة .

(٢) هذا الوصف لايصح بحال ، أن يتصف به سوى كلام المتعال ، كما قال المعترض فى كلامه ؛ وذلك لأن من الأوصاف ما انطبع بطابع خاص يقيده عن وصف الغير .
ألا ترى أنه لايجوز أن تقول : فلان ﷺ ، لاختصاصها بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، مع قوله تعالى « هو الذى يصلى عليكم وملائكته » آية ٤٣ من سورة الأحزاب .
ولا أن تقول محمد عز وجل ؛ لاختصاصها بالذات العلية ، مع أنه ـ صلوات الله تعالى وسلامه عليه ـ عزيز وجليل .

(٣) هو كتاب « مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب » لابن هشام وهو من أئمة العربية . وقال عنه ابن خلدون : إنه أنحى من سيبويه . وله تصانيف كثيرة ؛ منها « عمدة الطالب فى تحقيق تصريف ابن الحاجب » و « رفع الخصاصة عن قراء الخلاصة » و « الجامع الكبير » و « الجامع الصغير » و « شذور الذهب » و « قطر الندى » و « التذكرة » و « أوضح المسالك » و « موقد الأذهان » وغيرها من الكتب التى بلغت غاية النفاسة

(٤) آية ١٤٩ من سورة الصافات .

(٥) آية ٩٥ من سورة الصافات .

والآية من قبيل الثانى ، فيكون المعنى ـ والله أعلم ـ آ لآن آمنت ؟ لا . الآن ما آمنت ، إذ ما بعد الهمزة واقع على العصيان . والا يلزم الـكذب فى كلام الله تعالى ؛ تعالى عن ذلك علوا كبيرا !

وأما : ماقبلنا إيمـانك ، فلا دليل عليه من الآية بإحدى الدلالات الثلاث .

ويجوز أن تـكون الهمزة من قبيل العتاب والتلطف فى المقال ، كقول القائل أتضرب زيداً وهو أخوك ؟ ليعطفه عليه . بدليل قوله تعالى « فقولا له قولا ليناً لعله يتذكر أو يخشى » و « لعل » من الله : واجبة الوقوع ، إذ الترجى فى حقه سبحانه وتعالى محال .

وهذا الـكلام هو الذى نفعه [1] فى تلك الحالة ، حيث تذكر لطفه بعباده ، فلم ييأس من رحمته تعالى .

وأما قصة قوم يونس عليه السلام ، فلا تنافى ماقلناه .

أما أولا : فلأنها مفيدة نفع الإيمـان فى كشف الخزى فى الحياة الدنيا [2] مع أن الاستثناء منقطع ، والتوبيخ المأخوذ من الآية لدلالته لايضرنا ، فانه كم من توبيخ جاء فى القرآن فى حق المؤمن العاصى ، وكذا التـكرار فى ذكر فرعون وذمه ولعنه ، فانه قال سبحانه وتعالى « إلا من تاب وآمن وعمـل صالحاً فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئاً [3] » .

---

(١) هو الذى نفعه : أى نفع فرعون وحرضه على الإيمـان .

(٢) أراد بقصة قوم يونس : الواردة فى قوله تعالى « فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلاقوم يونس لمـا آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين » آية ٩٨ من سورة يونس

(٣) آية ٦٠ من سورة مريم

واللعن جاء فى القرآن فى حق المؤمنين فى غير موضع . منها : ومن يقتل مؤمنا متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما[١] »

وكذا فى الحديث الشريف على قائله أفضل الصلاة وأكمل التحيات[٢].

ولا يقول أهل السنة والجماعة : بأن المؤمن يخرجه ذلك عن إيمانه .

وفرعون قد دخل تحت قوله تعالى « إلا من تاب وآمن » فانه نطق القرآن بإيمانه .

وأما قوله جل شأنه « يأخذه عدوٌّ لى وعدوٌّ له[٣] » فان أسم الفاعل من جملة المتفق حقيقة حال التلبس بالمعنى ، أو جزئه الأخير ، لا حال النطق على الأصح عند الأصوليين ، وفى غيره مجاز ، والمجاز لابدّ له من قرينة .

وأى قرينة دلت على أنه مات على الكفر ؟

فلا بد للقائل بالكفر من إبرازها ليتكلم عليها ، مع أن المجاز لا يعارض الحقيقة .

وللقائل أن يقول : قوله تعالى « عدوٌّ لى » من باب المشاكلة ، لأنه عدو لموسى عليه السلام حقيقة ، وليس بعدو لله تعالى حقيقة .

وأما الذى احتج بقوله تعالى « حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنى تبت الآن ، ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك أعتدنا لهم عذابا أليما[٤] » .

---

(١) آية ٩٣ من سورة النساء .

(٢) جاء فى الحديث الشريف « لعن الله آكل الربا وموكله » مع إجماع المسلمين على إيمانه مع عصيانه ؛ لأن الذنب لايخرج المؤمن من الايمان .

(٣) آية ٣٩ من سورة طه .

(٤) آية ١٨ من سورة النساء .

فالمراد به : ملائكة الموت ، كما هو مصرح به فى كتب التفاسير .

ولئن قلنا المراد : الموت نفسه ، فالمراد أن الروح وصلت إلى الغرغرة [١] وهذا لايكون دليلا قطعيا بعدم قبول إيمان فرعون ، فإنه ليس بمعلوم أنه ماقال هذا الكلام إلا عند الغرغرة ، بل آية « آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين [٢] » قرينة بأنه قال ذلك فى غير حال الغرغرة ، بشهادة طول الكلام ، مع طول الملام ، والله تعالى لايخاطب جمادا .

وإيمان اليأس الذى لاينفع شرعاً : هو الإيمان يوم القيامة . وهو سنة الله تعالى ، وإلا يلزم الكذب فى كلامه تعالى ، حيث قال « فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين [٣] »

وأما فى الدنيا فانه مقبول ، بدليل قوله تعالى « قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم [٤] »

فلم يقيد جل شأنه وقتا دون وقت ، ولا شخصا دون شخص ، ودخل إيمان اليأس وغيره .

---

(١) الغرغرة : ترديد الماء فى الحلق ، وصوت فيه بحة ، والمراد بالغرغرة أيضا : الحشرجة عند طلوع الروح وحينذاك « لاينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أوكسبت فى إيمانها خيرا » آية ١٥٨ من سورة الأنعام

(٢) آية ٩٠ من سورة يونس

(٣) آية ٩٨ من سورة يونس .

(٤) آية ٥٣ من سورة الزمر .

وقد تقدم قوله تعالى « إنه لاييأس من روح الله إلا القوم الكافرون[١] » وما عليها من الكلام.

وقصة أسامة تقتضى أن إيمان اليأس مقبول شرعاً .

وأما قوله تعالى « إن الله لايغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء[٢] » فالمعنى أن الله تعالى لايغفر للمشرك ؛ مادام على شركه ، ومات عليه ؛ بدليل قوله عليه الصلاة والسلام : « ألا ومن أشرك ، ألا ومن أشرك ، ألا ومن أشرك » حين تليت « قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم[٣] » بعد أن قال عليه الصلاة والسلام : « ما أحب أن يكون لى الدنيا وما فيها بها » أى بهذه الآية . رواه الطبرانى والبيهقى ؛ وهو قريب من قوله صلى الله تعالى عليه وسلم : « وإن زنى وإن سرق[٤] »

وأما قوله « ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم[٥] » فدليل لنا لاعلينا ؛ فإن الاستجابة إنما هى فى حق

(١) آية ٨٧ من سورة يوسف .

(٢) آية ٤٨ من سورة النساء .

(٣) آية ٥٣ من سورة الزمر .

(٤) وتمام الحديث كما ورد فى الصحاح : عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه ، عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « أشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله . لايلقى الله تعالى بهما عبد غير شاك فيهما ، إلا دخل الجنة » قيل : وإن زنى وإن سرق ؟ قال صلى الله تعالى عليه وسلم « وإن زنى وإن سرق »

(٥) آية ٨٨ من سورة يونس .

فرعون ؛ فانه ما آمن إلا هو [١] لما عاين الغرق ؛ فكان الغرق . هو العذاب الأليم فى حقه .

وأما قومه فإنهم ما آمنوا لما رأوا الغرق ؛ فكان العذاب الأليم فى حقهم يوم القيامة .

بل قال البيضاوى فى قوله تعالى « أدخلوا آل فرعون أشد العذاب [٢] » هو الغرق . مع أنهم ما آمنوا ؛ فلا يكون الاستجابة لقوله تعالى « فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم [٣] » فى حقهم .

وأما قوله تعالى « أدخلوا آل فرعون أشد العذاب » فلا دلالة فيه لدخوله النار ؛ فانّ المضاف غير المضاف اليه ؛ ألا ترى أنك إذا قلت : ضربت غلام زيد . دل على أن زيداً ليس بمضروب .

وكذا قوله « فأوردهم النار » أى صيرهم واردين : فانه السبب ، ولئن سلم دخول النار ؛ فهو سبب ظلمه العباد .

وليس فى القرآن ، ولا فى السنة دليل صحيح يدل على التخليد .

وأما قوله تعالى « فأخذه الله نكال الآخرة والأولى [٤] » ، فان النكال أتى

---

(١) ما آمن إلا هو : أى لم يؤمن من قومه أحد ؛ بل آمن هو وحده .

(٢) آية ٤٦ من سورة غافر . وقد عجبنا من هذا التأويل الغريب الذى ذهب اليه المصنف ؛ إذ كيف يكون « أشد العذاب » هو الغرق ؟ قال تعالى « ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب » ومن المعلوم أن الغرق كان فى الدنيا ؛ لا عند قيام الساعة ومن العجب أن ينسب المصنف هذا التأويل الفاسد لإمام من أئمة التفسير . هو القاضى البيضاوى ؛ الذى لم نجد فى تفسيره خيالا لما نسبه المصنف إليه .

(٣) آية ٨٨ من سورة يونس .

(٤) آية ٢٥ من سورة النازعات

بمعنى القيد ، وأتى بمعنى العذاب .

وأى قيد أعظم – لمن ظلم العباد فى الدنيا من الغرق ؟ وفى الآخرة « يقدم قومه[١] » – من الفضيحة بين الخلائق !

وإذا عرفت ذلك : عرفت أن كلام الروضة لايكون دليلا ؛ فإن فرعون ماقال ذلك وحركته حركة مذبوح ؛ لما تقدم . مع أنه لادليل قطعى على أنه ما كان يحسن السباحة ، ولا على عدمها .

وبالجملة فالآيات غير « آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل » محتملة[٢] : والشيء إذا طرقه الاحتمال : سقط منه الاستدلال .

وأما من يقول بكون الشيخ محي الدين بن عربى من الملحدين : فجهل ينادى عليه[٣] بالإلحاد ؛ حيث تكلم فيمن لايصل إلى كنه كلامه أساطين العلماء ونحارير الفضلاء . وعجزت أفكارهم عن فهم أسراره . قدس سره[٤] !

والعجب أنه تكلم بما لايعلم ، حيث لم يعرف اصطلاحهم ، ومن لم يعرف شيئا أنكره

والشيخ يعنى بذلك : سعة رحمة الله تعالى وهذا القائل يقول : بعدم سعة رحمة الله ، ويقنط عباده ، ويحثهم على اليأس من روح الله ، و « لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون[٥] »

---

(١) آية ٩٨ من سورة هود . وتمام للآية « يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود » .

(٢) محتملة أن تحتمل معان عدة .

(٣) ينادى عليه : أى على قائله

(٤) انظر ماكتبناه فى تعليقاتنا فى أول الكتاب عن سيدى محي الدين بن عربى

(٥) آية ٨٧ من سورة يوسف

خاتمة المصنف

أيها المولى : سهمى قصير ، والناقد بصير ، ولكن انقل أمتعة المعانى ، إلى دهليز[١] القلب ، وضعها فى صندوق العقل ، واجـــل مرآتها من صدإ التعصب ، ليظهر لك شعاع شمسها ، من يومها وأمسها ، تعرف عقول الرجال فى تصاريفهم وتصانيفهم .

اللهم أطلع ثمار الأمانى ، من أغصان آمالنا ، ولمّ[٢] بلطفك شعث أحوالنا[٣] إلهى قبض عجزى روح نشاطى ، وطوى ثوب انبعاثى وانبساطى ، وأخلقت ملابس الشبيبة[٤] ، ووهن عظم العزيمة ، وشابت لمـة[٥] الهمة ، وعجز قدم البقاء عن الثبات ، وأقشعرت جلدة الجلد ، وحان الانقلاب إلى دار الأبد .

اللهم إنا نعوذ بك من الغفلة عنك ، والجهل بك ، والوحشة منك : أنت أنطقتنا بحمدك ، أنت أقررت جوارحنا على طاعتك ابإرادتك ضربنا[٦] وعن قدرتك ظهرنا ، وباحيائك حيينا ، وبإرآءتك رأينا ، وباشهادك شهدنا ، وبالهامك علمنا وعرفنا !

اللهم نزه أسماعنا عن اللغو . ونفر أنفسنا عن الهوى واللهو ، وقلوبنا عن الغفلة والسهو

وألهمنا فهم منطق الحكمة ، وآثار صنع القدرة ، وإشارة الدلالة والمعرفة ، يا أرحم الراحمين !

---

(١) الدهليز : مابين الباب والدار (٢) ولم : فعل أمر ؛ أى اجمع

(٣) الشعث : انتشار الأمر وتفرقه . ولم شعثه : أصلح حاله

(٤) أخلقت : بليت . وأراد بملابس الشبيبة : بهجة شبابه ونضرة فتوته .

(٥) اللمة : بكسر اللام المشددة : الشعر المجاوز شحمة الأذن ، أو هو الشعر يلم بالمنكب .

(٦) ضربنا : هكذا فى النسخة التى بأيدينا ؛ ولعله أراد بضربنا : سرنا . قال تعالى « إذا ضربوا فى الأرض أو كانوا غزى » ١٥٦ آل عمران . وقال جل شأنه « وإذا ضربتم فى الارض » ١٠١ النساء

فر العون

من مدعي إيمان فرعون

للعلامة على بن سلطان ، بن محمد القارى

بسم الله الرحمن الرحيم

وهو الهادى إلى الصراط المستقيم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أسعد من سعد — وهو فى صلب أبيه — كموسى وهارون، وأشقى من شقى — وهو فى بطن أمه — كفرعون وقارون؛ والصلاة والسلام على من لو كان موسى حيا لما وسعه إلا اتباعه؛ وعلى آله وصحبه وأتباعه: خير الأمم إلى قيام الساعة.

وبعد: فيقول راجى عفو ربه البارى، على بن سلطان محمد القارى:

رأيت رسالة منسوبة إلى العلامة الأكمل، والفهامة الأجل: جلال الدين محمد الدوانى، سامحه الله بما وقع له من التقصير والتوانى؛ حيث تبع فيها مانسب الى العالم الربانى، والغوث الصمدانى: مولانا الشيخ محي الدين بن عربى، قدس الله سره الشرقى والغربى؛ من أن فرعون — بلا عون — صح إيمانه، وتحقق إيقانه؛ وهذا باطل بالكتاب والسنة، وإجماع الأمة، على ماسنملى عليك، ونلق اليك، فخشيت أن يطلع عليها، من لا اطلاع له لديها، فيميل بالاعتقاد الفاسد اليها؛ فأحببت أن أذكر كلامه، وأستوفى تمامه، وأبين مرامه، وأعين رضاعه وفطامه؛ بأن أدرج رسالته فى ضمن رسالتى متناً وشرحا، ليحصل الغرض على المقصود بدءاً وفتحا. وسميتها

« فر العون من مدعى إيمان فرعون »

قال (بسم الله الرحمن الرحيم)

أقول : وهو مبتدأ كل أمر حكيم ، ومنشأ كل شأن عظيم

قال : (وهو الهادى إلى الصراط المستقيم)

أقول : لما كان كل يدعى أنه على الصراط المستقيم ، والدين القويم ؛ كما قال تعالى فى كتابه المكنون : « كل حزب بما لديهم فرحون[1] » وإن كان بعضهم عن الصراط لناكبون[2]

أبدل الله تعالى عن الصراط المستقيم ، فى فاتحة الكلام القديم ؛ قوله « صراط الذين أنعمت عليهم » أى من النبيين والصديقين ، والشهداء والصالحين ، ومن يميل إليهم « غير المغضوب عليهم » كاليهود « ولا الضالين » كالنصارى[3] ؛ الذين تركوا موافقة كتابهما ، ومتابعة رسولهما ؛ حيث حرفوا المبنى ، وغيروا المعنى فى حقهما .

والحاصل أن الصراط المستقيم : هو الموافق للكتاب الحكيم ؛ المشار اليه بقوله : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا[4] » والمطابق لما سبق عن الرسول الكريم « إن الله لايجمع أمتى على الضلالة . ويد الله مع الجماعة . ومن شذ شذ فى النار » رواه الترمذى عن ابن عمر . وفى رواية لابن ماجه ؛ من حديث أنس « اتبعوا السواد الأعظم ؛ فإنه من شذ شذ فى النار »

قال (الحمد لله قابل توبة عبده إذا تاب)

---

(١) آية ٥٣ من سورة المؤمنون .

(٢) لناكبون : لمائلون . نكب عن الطريق : عدل ومال . قال تعالى « وإن الذين لايؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون » آية ٧٤ من سورة المؤمنون

(٣) من المعلوم أن اليهود مغضوب عليهم وضالون وأن النصارى : ضالون ومغضوب عليهم .

(٤) آية ١٠٣ من سورة آل عمران .

. . . .

أقول : « وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات[١] » وهو قابل التوبة لمن تاب إليه ، شديد العقاب لمن طغى عليه :

لكن التوبة لها أركان :

أولها — الندامة ؛ ومحلها القلب : بأن يندم على المعصية ، من حيث إنها معصية ، لا بسبب آخر : كالغرامة على القمار ، لما فيه من خسارة الدينار ، وعلى شرب الخمر لما فيها من الخمار[٢] .

وقد قال تعالى فى حق قابيل قاتل هابيل « فأصبح من النادمين » أى على حمله . أو على عدم التفكر والتعقل فى دفنه ، ولذا لم ينفعه الندم فى أمره[٣]

وقال صلى الله عليه وسلم « الندم توبة » رواه أحمد وغيره ، والحاكم وصححه ، فاللام للعهد . والمراد أنه معظم أركانه وشرائطه الأولية .

وبهذا يتبين أنه لو فرض ندامة فرعون على كفره لأجل عذاب الغرق ، لا تكون مفيدة له الحق ، لأن إيمانه حينئذ ليس على وجه الإخلاص والصدق

وثانيها — الإقلاع عن المعصية ، ولا بد من حصول القدرة للعبد عليه[٤] ، وتركه مع تمكنه بالاختيار لديه .

ولذا لم تقبل توبة العنين[٥] المضطر اليه ، وكذا إيمان الكافر عند البأس ، وتوبة الفاسق عند اليأس .

وثالثها — العزم على عدم العود اليه ، على تقدير القدرة عليه .

ولذا لا يقبل الايمان إلا بالغيب ؛ دون مشاهدة العذاب بلا ريب ، كما سيأتى

(١) آية ٢٥ من سورة الشورى .

(٢) الخمار ؛ بضم الخاء : مخالطة الخمر للعقل ، وما تحدثه من السكر .

(٣) وذلك لأنه لم يندم على جريمة القتل ؛ بل ندم على عدم التوفيق إلى الدفن .

(٤) عليه : أى على الذنب .

(٥) العنين : من لا يأتى النساء عجزاً ، أو هو مقطوع الذكر .

لاسيما ويفرح بتوبته كما ورد عن سيد الأحباب ، والصــــلاة والسلام على سيدنا محمد والآل والأصحاب

بيانه ، ويرد برهانه .

قال (لاسيما ويفرح بتوبته كما ورد عن سيد الأحباب)

أقول : المراد بسيد الأحباب : حبيب رب العالمين ، وطبيب قلوب القالين [١] حيث قال : « الله أشد فرحا بتوبة عبده ، من أحدكم إذا سقط عليه [٢] بعيره ، قد أضله بأرض فلاة [٣] » رواه الشيخان عن أنس . ورواه ابن عساكر فى أماليه عن أبى هريرة « الله أفرح بتوبة عبده من العقيم الوالد ، ومن الضال الواجد ، ومن الظمآن الوارد »

وقد قال علام الغيوب « إن الله يحب التوابين » أى من الذنوب « ويحب المتطهرين [٤] » أى من العيوب .

ولا شك أن المراد بالتوبة : هى التوبة الصحيحة ، وألا تكون لسانية [٥] يستحق صاحبها الفضيحة ، فلا كل من قال : آمنت ، صح إيمانه ، ولا كل من قال تبت ، ثبت إحسانه .

ثم المراد بالفرح : هو الرضا ، وما يتعلق به من الثواب والثناء ، وإلا فهو فى حقه تعالى محال ، لمنافاته صفات الكمال ، لكونه من باب التغيير والانفعال .

قال (والصلاة والسلام على سيدنا محمد والآل والأصحاب)

أقول : اللام للعهد ، وعوض المضاف اليه : أى آله وأصحابه .

---

(١) القالين : المبغضين . والمراد بهم هنا : الشاكين المترددين المتحيرين .

(٢) إذا سقط عليه بعيره : إذا وجده فجأة بعد اليأس من وجدانه .

(٣) الفلاة : الأرض المجدبة . التى لا ماء فيها ولا نبات .

(٤) آية ٢٢٢ من سورة البقرة .

(٥) لسانية : أى باللسان لا بالأركان ، وبالقول لا بالفعل .

أما بعد ، فقد سألنى من إجابته على فرض عين ، ومنزلته فى أعلى منازل السالكين : سلالة السلف الطاهر والجناب الفاخر

وفيه إشارة إلى مذهب أهل السنة والجماعة : من الجمع بين المحبة ، لجميع الأحبة : أعنى محمداً وحزبه ، ورد وارد على الخوارج(١) : حيث يبغضون أكثر أهل البيت ، وعلى الروافض(٢) : حيث يرفضون أكثر الصحابة ، وفيهم أهل اللعنة ، ولهم اللعنة .

قال (أما بعد)

أقول : هذا فى أول الكتاب ، يسمى فصل الخطاب . وهو أن يأتى بعد الخطبة ، قبل الشروع فى البغية ، والمضاف مقدر منوى : أى بعد الحمد الإلهى ، والسلام النبوى .

(فقد سألنى من إجابته) أى إجابتى إياه (علىّ فرض عين) أى واجب علىّ ، متعين لدى ، وفيه المسامحة ، لما أريد به من المبالغة (ومنزلته فى أعلى منازل السالكين) أى مرتبته فى أتق مقام الجمال ، الغالب على الجلال ؛ فى أعلى مراتب الجاه والمال ، والنسب والحسب اللذين عليهما مدار الكمال (سلالة السلف الطاهر) أى خلاصة المتقدمين الأطهار . وإنما أفرد « الطاهر » نظراً للفظ السلف على الظاهر (والجناب الفاخر) فى القاموس « الجناب » الفناء والرحل ، والناحية ، انتهى . وهو كناية عن صاحب المقام على وجه الكمال ، بذكر المحل وإرادة الحال :

---

(١) الخوارج : هم أهل الأهواء ، يقولون بما لم يقل به غيرهم . وسموا بالخوارج لخروجهم على إجماع المسلمين .

(٢) الروافض : فرقة من الشيعة ، بايعوا زيد بن على على الخلافة ، ثم قالوا له : تبرأ من الشيخين . فأبى وقال : كانا وزيرى جدى ؛ فتركوه ورفضوا بيعته . والروافض : كل جند تركوا قائدهم ؛ ثم استعمل هذا اللقب فى كل من أجاز الطعن فى الصحابة ؛ رضوان الله تعالى عليهم .

ذو العزة فى الدين روّح الله روحه فى العالمين — أن أكتب على قوله تعالى (آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين .... الآية)

و « الفاخر » على ما فى القاموس : الجيد من كل شىء ، والفخر ، التمدح بالخصال كالافتخار ؛ انتهى .

والأظهر أنه فاعل للنسبة ؛ كتامر ، ولابن . أى ذو الفخر ، أى المفتخر به : وهو فى الظاهر : صفة للجواب ولصاحبه فى المآل .

ويؤيده قوله (ذو العزة) أى صاحب الغلبة والمنعة

(فى الدين) أى صاحب الطاعة والديانة

(روّح الله روحه فى العالمين) أى أعطى الله الروح والراحة لروحه فيما بين عالمى زمانه ، لعلو مكانته ومكانه

وفيه إشارة إلى أنه حصل لممدوحه الانتقال ، قبل جواب السؤال .

(أن أكتب) « أن » مصدرية ، محلها النصب ، على أنه مفعول ثان السائل ، أو تفسيرية ، لأن فى السؤال معنى القول .

أى أكتب كتابة تفسير وبيان ، وحجة وبرهان .

(على قوله تعالى) أى حكايةعن فرعون عند إدراك الإغراق ، على توهم تدارك الاستحقاق ؛ بقوله :

(آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين الآية[١]) يحتمل الاعرابات الثلاث . ولا يخفى أن « من المسلمين » رأس الآية ؛ فمراده بـ« الآية » هى التى تتلوها فى القراءة ، وهى قوله تعالى « آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين [٢] » .

(١) آية ٩٠ وما بعدها من سورة يونس

(٢) آية ٩١ من سورة يونس .

فأجبت إلى ذلك وكتبت فى غابر الزمان حسب ماظهر من غير تقليد ،

(فأجبت إلى ذلك) أى أجبت السائل إلى قبول مسئوله ، والجواب على مطلوبه ومأموله .

(وكتبت فى غابر الزمان) أى وقد كنت كتبت فى سالف الزمان ، وماضى الأوان والأحيان .

(حسب ماظهر) بفتح السين ، وقد يسكن ؛ أى مقدار ماتبين لى ، وتعين عندى ؛ من الكلام على الآية ، وما يتعلق بها من الرواية والدراية .

(من غير تقليد) أى لأحد من الأئمة المجتهدين ؛ على زعم أنه وصل إلى مرتبة المحققين ، وإلى منزلة المدققين.

ومن هنا وقع فى عدم الهنا ، ووجه العنا ، وفقد الغنا ؛ إذ لو تتبع كلام السلف والخلف من المفسرين . وتبع روايات المحدثين ؛ لما وقع تحت قول سيد الأبرار : « من قال فى القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار » رواه الترمذى . وفى رواية « من قال فى القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ [1] »

---

(١) هذا الحديث مردود ، لمنافاته أبسط قواعد المنطق السليم : فانه لا يصح — عقلا أو نقلا — نسبة الخطأ لمن يصيب !

أما الحديث الأول ؛ فالمراد منه : أن من يقول فى القرآن برأى يعلم أن الحق غيره ؛ فليتبوأ مقعده من النار ؛ أو المراد بالرأى : الهوى .

هذا وقد دأب كثير من الخوارج على وضع الأحاديث وانتحالها ؛ لهوى فى نفوسهم يدعون الناس اليه وقد قال قائلهم — بعد توبته — إنا كنا إذا هوينا أمرا صيرناه حديثا .

فلينظر المؤمن فى كلام سيد المتكلمين ، وخير الخلق أجمعين ؛ فان له نوراً كنور الشمس أو هو أضوأ ، وعبيراً كعبير المسك أو هو أعبق !

وكيف نقول للمصيب : أخطأت ؛ وقد ترتب له بصوابه أجران كما جاء فى الحديث الصحيح « للمخطىء أجر ، وللمصيب أجران »

هذا وقد كفانا الترمذى رضى الله تعالى عنه مئونة البحث وراء سند هذا الحديث ؛ إذ وصفه بالغرابة ، فقال : « هذا حديث غريب »

ثم عنّ لى أشياء من مولى الحميد ، فأحببت الزيادة فى الكلام العربىّ ليظهر به الردّ على من قال بتكفير مولى العلماء وتاج الأولياء مولانا الشيخ محي الدين بن العربى والطعن فى كلامه ، وزيادة الكلام لافائدة فيه فى ملامه .

(ثم عنّ) بتشديد النون ؛ أى ظهر

(لى أشياء) أى أمورا أخرى

(من مولى الحميد) وكأن الإضافة بيانية – عند من يجوّزها – وكان الأحسن أن يقول : من فيض المولى الحميد ؛ وهو فعيل بمعنى الفاعل ، أو المفعول .

ولما كان ظن كل واحد أنه فى مرتبة الانقباه : نسب إلى أنه من فيض الإله . وفى الحقيقة كلٌّ من عند الله .

(فأحببت الزيادة) أى على الزيادة ، فى سابقة الإفادة

(فى الكلام العربى) كأنه إشارة إلى أن ماصدر عنه أولا كان باللسان العجمى

(ليظهر به) أى بمجموع ماذكر

(الرد على من قال بتكفير مولى العلماء) أى سيدهم ورئيسهم

(وتاج الأولياء) أى سندهم ورائدهم ؛ والمراد : علماء زمانه ، ومشايخ مكانه

(مولانا الشيخ محي الدين بن العربى) وأغرب الجلال – مع جلالته – أنه سجع بين العربى والعربى فى جزالته (والطعن فى كلامه) إن عطف بالرفع على الرد ؛ فلايخفى فساده ، وإن عطف بالجر على التكفير ؛ فيظهر كساده

ثم قوله (وزيادة الكلام) يحتمل الجرّ ، والرفع ؛ وهو أظهر .

وقوله (لافائدة فيه) أى فى ذلك الكلام ؛ أو فى زيادته ؛ وذكره لكونه مصدرا ، والجملة حال .

وقوله (فى ملامه) بدل مما قبله ، أو « فى » تعليلية ، والملام – بفتح الميم – مصدر لامه ، بمعنى الملامة .

فأقول وبالله التوفيق : اعلم يا أخى وفقنى الله وإياك طريق الصواب ، وجنبنى وإياك عن مسالك التعصب والاعتصاب : أن علماء الإسلام ، وأهل الولاية والاحتشام ، قد اختلفوا فى إيمان فرعون موسى عليه السلام

وسيأتى إن شاء الله التيسير : تفسير مايتعلق بالتكفير

(وأقول وبالله التوفيق) لأنه بيده أزمّة [1] التحقيق :

(اعلم يا أخى) أى فى الدين ؛ لقوله تعالى « إنما المؤمنون إخوة [2] » وهو خطاب عام ؛ يشمل السائل وغيره

(وفقنى الله وإياك طريق الصواب) منصوب بنزع الخافض ؛ أى لطريقته ؛ والوصول إلى تحقيقه

(وجنبنى وإياك عن مسالك التعصب والاعتصاب) أى وبعّدنا عن طرق التعصب المذهبى التقليدى ، والاشتداد على وفق الدين الوالدى [3] ، والبلدى [4] البليدى ، لأن طريق الصواب : هو المأخوذ من الكتاب ، وحديث سيد أولى الألباب ، وما أجمع عليه الآل والأصحاب ، ومن تبعهم من علماء الأخيار ، ومشايخ الأبرار

(أن علماء الاسلام) أى من أهل الاجتهاد التام ، والفتوى الأنام

(وأهل الولاية والاحتشام) أى من مشايخ العظام ، وصلحاء الكرام

(قد اختلفوا فى إيمان فرعون موسى عليه السلام) إنما أضاف فرعون إلى موسى ، لأن فرعون : لقب كل من ملك مصر ، كما أن قيصر : لقب ملك الروم [5]

---

(١) أزمة : بكسر الزاى وفتح الميم المشددة : جمع زمام

(٢) آية ١٠ من سورة الحجرات .

(٣) أراد بوفق الدين الوالدى : قول المشركين : « بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون . ـ إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون »

(٤) والبلدى : أى التعصب الإقليمى لأهل بلدته

(٥) ولقب به أيضا ملوك روسيا السابقون .

فمنهم من طوقه طوق الكفران والطغيان ، ومنهم

والنجاشي : لقب ملك الحبشة[1]، وتبع: لمن ملك اليمن ، وكسرى لمن ملك الفرس[2]

ثم الاختلاف الذى ذكره ليس له أصل أصلا ، ولا نسب هذا القول إلا لابن العربى وصلا وفصلا ، فهذا بهتان عظيم ، وسبب لخراب الدين القويم ، لأن الجاهل إذا طرق سمعه قول هذا القائل ، ظن أن هذا من قبيل اختلاف المسائل : عما وقع بين أهل السنة والجماعة ، وبين المعتزلة[3] وأشباههم ، أو بين الحنفية والشافعية وأتباعهم ، أو بين المفسرين فى أقوالهم ، والحال أنه ليس لذلك أثر ولا خبر فى كتبهم

(فمنهم) أى فبعض العلماء والمشايخ على زعمه

(من طوقه طوق الكفران) إى ألبس فرعون طوق اللعنة والخسران ، أو نسبه إلى الكفر ، الذى هو ضد الايمان .

وأما « الكفران » فهو ضد الشكر على الإحسان .

(والطغيان) وهو التجاوز عن حد الطاعة ، والمبالغة فى العصيان ، وهذا لاخلاف فيه عند العلماء الأعيان ، فمن ادعى خلاف ذلك فعليه البيان .

(ومنهم) أى ومن العلماء والمشايخ على زعمه، إذ ليس لهم وجود فى الخارج إلا فى ذهنه .

نعم وجد هذا القول فى كتب ابن العربى ، والمعتمد عند العلماء أن هذا مدخول

---

(١) النجاشي : أصحمة ، ملك الحبشة

(٢) ويقاس على ذلك لقب خاقان : لكل من ملك الترك .

(٣) المعتزلة : فرقة من خيرة المسلمين المفكرين ظهروا فى القرن الأول من الهجرة . وقد وصفوا بالاعتزال : لمخالفتهم أهل السنة فى بعض فروع الملة : كنفى رؤية الله تعالى بالأبصار يوم القيامة ، وكنسبة أفعال العبد إلى نفسه — خيرها وشرها — وتنزيهه تعالى عن إرادة الشر والظلم ، وأن المؤمن المرتكب للكبائر يخلد فى النار ، إذا لم يبادر بالتوبة ! ولكل رأى من هذه الآراء عندهم دليله القوى وحجته البالغة ! ويستندون فيما يقولون على الكتاب والسنة ، والمنطق الواضح . وناهيك بالإمام الزمخشرى فهو أحد أئمتهم .

من أدخل عنقه فى ربقة الإيمـان إلى يوم الجزاء والإحسان ، والحق أن الآية الشريفة مصرحة بالإيمـان

فيها من الملحد الغبى[1] ، فلا يصح قوله

(ومنهم من أدخل عنقه) أى عنق فرعون

(فى ربقة الايمـان) أى فى قيده

(إلى يوم الجزاء والاحسان) ولا يخفى أن هذه الغاية ليس لها محل من البيان

(والحق) هذه مجازفة عظيمة ، وجرأة جسيمة ، حيث جعل نفسه أهلا للمحاكمة، ثم حكم للقول الشاذ النادر ، الذى ليس له أصل أصلا فى المخاصمة ، بل الحق من طرف الجدال ، ومفهومه أن غيره هو الضلال ، لقول الملك المتعال « فماذا بعد الحق إلا الضلال » فهذا من الابطال على كلام ذى الجـلال ، فلو كان من أهـل الوصال ، لقال : والأظهر أو الظاهر فى الحال .

(أن الآية الشريفة مصرحة بالايمان) مع أنها غير ظاهرة عند أرباب الايقان ، وأصحاب البيان ؛ وإنمـا يتوهم من يعرى عن البرهان ؛ لاعتماده على إيمان اللسان ، أو على مجرد الايمـان ؛ مع قطع النظر عن الشروط والأركان ، حتى قال الشيخ بنفسه فى الفصوص[2] : وهذا هو الظاهر الذى ورد به القرآن

مع مناقضة كلامه فى الفصوص الحـكمية . لمـا ذكر فى الفتوحات المـكية ؛ حيث قال فى الباب الثانى والستين : المجرمون أربع طوائف ، كلها فى النار ، لايخرجون منها : وهم المتـكبرون على الله ، كفرعون وأمثاله : ممن ادعى الربوبية لنفسه ، ومن

---

(١) أى بأن هذا القول دسه أحد الملحدين الأغبياء على الامام ابن عربى .

(٢) هو كتاب فصوص الحـكم لسيدى محي الدين بن عربى صاحب الفتوحات المـكية ، وقد قال فى الفصوص بإيمـان فرعون ، وقد ذكرنا فى صدر هـذا الـكتاب ماذهب اليـه ابن عربى .

من غير مانع منطوقا ومفهوما فإن (لا) لنفى حكم الجنس والخبر محذوف، والتقدير (آمنت أنه) أى بأنه (لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل)

ذلك نمروذ[١] وغيره انتهى[٢].

هذا هو الصواب، عند أولى الألباب !

والعجب من بعض شراح الفصوص، أنه أول هذا الكلام المطابق المنصوص. ومال إلى الضلال، المضطرب فى المقال !

(وقوله من غير مانع منطوقا ومفهوما) ممنوع لما سيأتى من الموانع مايصير الأمر به معلوما.

(فإن « لا » لنفى حكم الجنس) لامخالف فيه من الجن والانس.

(والخبر محذوف) وفيه خلاف معروف

(والتقدير « آمنت أنه » أى بأنه « لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل »)

هذا التقدير: إنما هو على قراءة فتح الهمزة التى عليها الجمهور، وأما على قراءة كسرها[٣]، وهى قراءة حمزة والكسائى: فعلى إضمار القول تقديرا، أو على أنه استئناف بدلا لآمنت وتفسيرا.

ثم اعلم أولا أن البيضاوى ذكر مجملا فى تفسيره ما أجمع عليه المفسرون مفصلا، حيث قال: فنكب[٤] فرعون عن الايمان أوان القبول، وبالغ فيه حين لا يقبل منه

---

(١) نمروذ: من العتاة الجبابرة أرسل اليه وإلى قومه إبراهيم عليه الصلاة والسلام، فحاول إحراقه بالنار: فجعلها الله بردا وسلاماً عليه، قلنا يانار كونى بردا وسلاما على إبراهيم، وقيل: إنه نمرود، بالدال، وأنه مشتق من التمرد.

(٢) لعل سيدى محيي الدين قال بإيمان فرعون، ثم عدل عن ذلك بما قرره فى الفتوحات، أو لعله قال بكفره ثم عدل عن ذلك بما كتبه فى الفصوص.

(٣) أى « آمنت إنه » بكسر الهمزة وبها قرأ عامة الكوفيين

(٤) نكب عن الطريق: عدل عنه. قال تعالى « وإن الذين لايؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون »

والمعنى : صدقت وتيقنت أنه لامعبود بالحق فى الوجود إلا الله الذى آمنت به بنو إسرائيل والذى آمنت به بنو إسرائيل هو المعبود بالحق الذى جاء به موسى وهارون عليهما السلام

الوصول، فقيل له : « آلآن » أى أتؤمن الآن ، وقد أيست من نفسك بالاضطرار ، ولم يبق لك شىء بالاختيار « وقد عصيت قبل » أى قبل ذلك مدة عمرك « وكنت من المفسدين » الضالين المضلين ، عن الايمان والدين !

وإذا عرفت فقوله (والمعنى : صدقت وتيقنت أنه لامعبود بالحق فى الوجود إلا الله الذى آمنت به بنو إسرائيل) مدفوع بأنه لا يلزم من قوله « آمنت » أنه صدق وتيقن ، لقوله تعالى « قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان فى قلوبكم[1] »

ثم قوله (والذى آمنت به بنو إسرائيل . هو المعبود بالحق الذى جاء به موسى وهارون عليهما السلام) ليس لأحد فيه مناقشة ، ولا يتوهم منه مناقضة ، وإنما المناقضة فى أنه هل إيمانه وقع عن يقين وبرهان ، أو بمجرد لقلقة لسان[2] ، وعلى التنزيل فهو فى وقت يأس وعيان[3] وحال يائس وحرمان ! مع أن إيمانه هذا انما يفيد التوحيد فقط ، وأنه عن مرتبة دعوى الألوهية سقط[4] ؛ وهذا القدر من الإيمان غير معتبر فى جميع الأديان .

---

(١) آية ١٤ من سورة الحجرات

(٢) اللقلقة : شدة الصوت وارتفاعه

(٣) وقت يأس وعيان : أى يأس من النجاة ، ومعاينة لبأس الله تعالى وعذابه ، ينطبق عليه قوله تعالى « فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين . فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا » آية ٨٣ و ٨٤ من سورة غافر

(٤) أى سقطت عنه الألوهية التى كان يدعيها بقوله « أنا ربكم الأعلى » و « ماعلمت لكم من إله غيرى »

وأنه قال ذلك بقلبه مصمماً على ذلك ونطق بلسانه ، أما النطق فظاهر ، وأما الإيمـان بالقلب فبشهادة الجملة الفعلية التي هي (آمنت) المؤكدة بمضمون الجملة الاسمية

فان من قال : لا إله إلا الله ، ولم يضم اليـه مثلا شهادة محمـد رسول الله : لم يكن مؤمنا اجماعا ، فكان ركن الإيمان الآخر : الاقرار بأن موسى رسول الله ، لأن المفهوم من الآية فى الجملة : أنه آمن بإله موسى ، ولا يلزم منه الايمان برسالة موسى، كما لايخفى . ولأن قوله « وأنا من المسلمين » للاحتياج الى التنصيص على الايمـان بالرسول الملزوم منه الايمـان بجميع المرسلين ، والمقتضى للايمـان بجميع المؤمن به الى يوم الدين ، على وجه اليقين !

وأما ماصححه البغوى ، ونقله عن إمام الحرمين عن الأكثرين ، ونقـل الحليمى الاجمـاع عليه : من أن ايمـان المشرك بشهادة التوحيد ، فمعناه أنه لايحتاج الى التبرى عن سائر الأديان ، وملل الطغيان ، لا أنه يتم بدون الايمـان بالنبى، كما فهمه الشارح الغبي ، لفصوص ابن العربى !

وبهذا يظهر عدم فائدة قوله : فقد حصر إيمـانه فى المعبود بحق منطوقا ومفهوما. وأنه صار بمـا ذكرنا كل ركن من الايمـان لك معلوما .

وأما قوله (وأنه قال ذلك بقلبه مصمماً على ذلك) فمردود ، لأنه غير معلوم إلا لعالم الغيب على ماهنالك

ثم قوله (ونطق بلسانه) يحتاج الى تبيانه

وقوله (أما النطق فظاهر) غير ظاهر: لأنه تحت الاحتمال فلا يصح للاستدلال

قوله (وأما الايمان بالقلب : فبشهادة الجملة الفعلية ، التى هى « آمنت ») فيه أن الجملة الفعلية ، ليس لهـا دلالة على الشهادة القلبية ،

وكانت الجملة كما قال . (المؤكدة بمضمون الجملة الاسمية) التى هى « وأنا من

«وأنا» واللام المؤكدة بالجملة الاسمية؛ التي هى «وأنا من المسلمين»

فمن له طبع سليم، وعقل مستقيم: يعلم أن هذا القول؛ إنما قاله عند استقامة العقل؛ لا أنه حالة الغرق عند غمر الماء وغشيانه.

وقد قال المحققون من المتكلمين: إن الإيمان هو التصديق بالقلب، وإن الإقرار باللسان لإجراء الأحكام

المسلمين» أى «لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل»

وفيه أنها ليست مؤكدة لها؛ بل متعلقة بها.

وقوله (وأنا واللام المؤكدة بالجملة الإسمية؛ التى هى «وأنا من المسلمين») خارج عن القواعد؛ إذ لم يقل أحد بأن كون «أنا» حال كونه مبتدأ مؤكد، ولا أن لام التعريف مؤيد؛ وهذا يدل على أن طبعه سقيم؛ وفهمه غير قويم أ

ومع هذا قال (فمن له طبع سليم، وعقل مستقيم: يعلم أن هذا القول إنما قاله عند استقامة العقل)

وفيه أنه لم يقل أحد: إنه قاله حال جنونه، وإزالة فهمه.

وقوله (لا أنه حالة الغرق عند غمر الماء وغشيانه) مع عدم ملاءمته لما قبله من بيانه؛ مخالف لنص كلام الحق «حتى إذا أدركه الغرق»

قال (وقد قال المحققون من المتكلمين: إن الايمان هو التصديق بالقلب) وهو كذلك، لكن لا يطلع على التصديق إلا الرب.

ومع هذا لا ينفع الايمان، عند المشاهدة والعيان [1].

قال (وإن الاقرار باللسان لإجراء الأحكام) أى على خلاف فى أنه شطر

---

(١) أى عند مشاهدة العذاب ومعاينة الهلاك.

فكيف من صدق بجنانه ، ونطق بلسانه ؛ ثم اخترمته المنية بعد ذلك . وهذا معنى قول الشيخ فقبضه عند إيمانه قبل أن يكتسب شيئاً من الآثام ؛ فإنه لم يعش بعد ذلك ، والإسلام يجبُّ ماقبله أى فى حق الخالق ، دون الخلائق !

أو شرط عند علماء الاسلام .

قال (فكيف من صـــدق بجنانه ، ونطق بلسانه) كلاهما ممنوعان ، واعتبارهما مدفوعان ؛ لما سبق لك بعض بيانه ، وسيأتيك بقية برهانه .

قال (وهذا معنى قول الشيخ [١]) أى على نسبته اليـه ؛ وإلا فهو لاشك أنه افتراء عليه ، وله تأويل غامض لديه :(فقبضه عند إيمانه) يحتاج الى تحقيق إتيانه.

وقوله (قبل أن يكتسب شيئاً من الآثام) أى المتعلقة بالأنام ، وإلا فلا يتصور منه الآثام القلبية : من مفاسد النية ، ومقاصد الدنية .

وقوله (فانه لم يعش بعد ذلك) أى ليظهر على ظاهره شيء من المعاصى هنالك ؛ وليس الكلام فى ذلك ، وإنما هو من باب استطراد السالك .

وكذا قوله (والاسلام يجبُّ ماقبله فى حق الخلائق [٢]) وكأنه توهم أن باغراق فرعون إنما كان لحقوق العباد : كاضلال الخلق ، وقتل النفس ، واسترقاق بنى إسرائيل على وجه الفساد .

---

(١) المراد بالشيخ : سيدى محي الدين بن عربى . وقد أثبتنا بهامش المتن ماقاله بهذا الصدد ـ هذا وقد ترك ـ قبل هذه الجملة ـ قوله:
« ثم اخترمته المنية بعد ذلك» وهى مثبتة بأصول المتن

(٢) فى نسخة المتن : « والاسلام يجب ماقبله أى فى حق الخالق دون الخلائق » أى إن الذنوب المتعلقة بحق الله : يغفرها الله ؛ أما ماتعلق منها بحق المخلوقات : فيجب ردها، وتبرئة النفس منها ،

هذا وقد علق على الجملة مخطئا ، بعد الذى اعتراها من نقص وبخس :

فانه قدس سره لم يجهل ذلك ؛ لتقييده بذلك . ثم قال :

فاعلم أنه ورد فى صحيح مسلم ، عن عمرو بن العاص مرفوعا « إن الاسلام يهدم ما كان قبله ، وإن الهجرة تهدم ما كان قبلها ، وإن الحج يهدم ما كان قبله »

قال الشيخ ؛ المعتمد فى المعتقد : الامام التوربشتى : الاسلام يهدم ما كان قبله : مظلمة كانت أو غيرها ، صغيرة أو كبيرة . وأما الهجرة والحج . فانهما لا يكفران المظالم ، ولا يقطع فيهما بغفران الكبائر التى بين العبد ومولاه ؛ فيحمل الحديث على هدمهما الصغيرة المتقدمة . ويحتمل هدمهما الكبائر التى لا تتعلق بحقوق العباد ؛ بشرط التوبة !

عرفنا ذلك من أصول الدين ؛ فرددنا المجمل إلى المفصل ، وعليه اتفاق الشارحين . انتهى

وهو مطابق لإطلاق قوله تعالى « قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف [1] » وموافق لقوله عز وجل « ويغفر لكم ذنوبكم [2] » وملائم لقوله سبحانه وتعالى « لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا [3] »

وأما ما جاء فى بعض الآيات من قوله تعالى « يغفر لكم من ذنوبكم [4] » فمحمول على الخطاب العام : الشامل للمؤمن والكافر ، أو على أن « من » زائدة ، أو على أنها تبعيضية ؛ والمراد : من بعض ذنوبكم ؛ هو ما سبق : فان الاسلام يجبه ؛ فلا يؤاخذه فى الآخرة ؛ كما ذكره البيضاوى فى سورة نوح عليه السلام .

فهذا دل على جهل الجلال بما هنالك ؛ وصح قوله (فانه قدس سره لم يجهل ذلك ؛

(١) آية ٣٨ من سورة الانفال
(٢) آية ٧١ من سورة الاحزاب
(٣) آية ٥٣ من سورة الزمر
(٤) آية ٣١ من سورة الاحقاف

وجعله آية على عنايته سبحانه لمن شاء؛ حتى لا ييأس أحد من رحمة الله تعالى؛

لتقييده بذلك. ثم قال، أي الشيخ على زعمه

(وجعله) أى جعل الله إيمان فرعون؛ على تقدير صحته

(آية) أى دلالة واضحة، وعلامة لائحة

(على عنايته سبحانه لمن شاء؛ حتى لا ييأس أحد من رحمة الله تعالى)

أقول: لو أريد الدلالة على ذلك، وتحقق إيمانه هنالك، لكان الله أبقاه وما أهلكه فى تلك المسالك[1]؛ بل أنجى بدنه الهالك، وألقاه عريانا منفرداً، على ساحل بحره، لكشف تزويره وإماطة الشبهة فى أمره، وإظهار قدرته، وغلبة قضائه وقدره وبهذا ظهر وجه إبرازه على الخصوص، فبطل قول صاحب شرح الفصوص: لولا وجود إيمانه، لم يظهر وجه امتيازه عن أتباعه وأقرانه.

ثم فيه إشارة لطيفة: أن الخلاص الصورى، كان فى مقابلة الايمان الاضطرارى، لأن الله تعالى لا يضيع أجر من أحسن عملا، أى ولو كان من الكفار مثلا.

فان بعض أعمالهم مما هو فى صورة أفعال المؤمنين: من إطعام الفقراء، وغوث الضعفاء، وصلة الأرحام، وإحسان الأيتام، ويجازون فى الدنيا بالنعم الصورية: من المال، والجاه، وطول العمر، وكثرة الذرية.

---

(١) لم يكن الموت أو التعذيب، دليلا على كفر الميت، أو عصيان المعذب، فقد عذب الرسل عليهم السلام وأوذوا، بل وقتل زكريا ويحيى عليهما السلام، وهم أفضل الناس وخيرة خلق الله تعالى، وأوذى الرسول الأعظم صلوات الله تعالى وسلامه عليه، بما لا يدع زيادة لمستزيد. ولسنا بقولنا هذا نؤيد إيمان فرعون، أو نقول بموته على الكفر، بل نقف موقف الحياد ليستطيع القارئ أن يخرج من هذه الدراسة بمحصول كبير، يغذى فكره وعقله: ولا بأس عليه إن اقتنع بأحد الرأيين، وناصر أحد الفريقين، والله تعالى ذو الرحمة الواسعة، وذو البطش الشديد، وهو وحده الفعال لما يريد!

أخذ من قوله تعالى « قل ياعبادىَ الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم » وشيد أركانه بقوله « إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » فلو كان فرعون ممن يئس : مابادر إلى الإيمان. وهذا كلام صدق ،وأسلوب حق.

وقوله (أخذ[1]) بصيغة الماضى والفاعل (من قوله تعالى « قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم ») ليس فيها مايدل على مانحن فيه من الدلالة ، فان الكلام فى عدم صحة إيمانه لعدم شروط تحقق إيقانه .

والآية إنما تدل على قبول التوبة ، والنهى عن القنوط من الرحمة .

وكذا قوله (وشيد أركانه بقوله «إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون») وفيه أن اليأس من رحمة الله : هو أن يظن أن الله تعالى لايغفر له بعد توبته ، وتحقق أوبته .

قال (فلو كان فرعون ممن يئس : مابادر إلى الإيمان) فيه أن عدم قبول إيمانه، على تقدير تحقق أركانه . لأنه يئس من الحياة ، وتحقق من الممات ، ورأى عذاب الدنيا ، بل عقاب العقبى أيضا مشاهدة وعيانا ، ولا يعد إيمان اليائس — حال اليأس — إيماناً ، فتقدم يأسه ، مانفعه حال بأسه .

قال (وهذا كلام صدق) أقول : لكن أريد به كذب

(وأسلوب حق) لكن أريد به باطل ونصُب[2]

---

(١) فى إحدى نسخ المتن : أخذا

(٢) النصب : بفتح النون المشددة وضمها ، وسكون الصاد فى الحالين ، وبضم النون والصاد : الداء والبلاء : والنصب بضمتين : كل ماعبد من دون الله تعالى .

وما يجهله إلا من لايعرف أساليب الكلام . والدليل على قبول الإيمان : قوله « آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين » للقاعدة البيانية : وهى إذا كان هناك نفى وقيد : تسلط النفى على القيد ورفعه . وعلى هذا فالهمزة للإنكار ، والإنكار بمعنى النفى

(وما يجهله إلا من لايعرف أساليب الكلام) ولا شك أن صاحب الجهل المركب هو البعيد من المقام فهم المرام ، حيث نسب الأئمة الأعلام ، بل جميع أهل الاسلام ، إلى الجهل بالكلام .

قال (والدليل على قبول الايمان :قوله « آلآن وقدعصيت قبل وكنت من المفسدين ») وفيه أن الكلام فى تحقيق الايمان ، ليرتب عليه القبول ، عند أرباب الايقان : فثبت العرش ثم انقش . من أمثال أهل البيان ، مع أن الآية مصرحة على توبيخه بتأخير الايمان ، الى أوان العيان[1] ، مع تحقق عصيانه وكفره فى سائر الأزمان

فلو كان إيمانه صحيحا ، لما أتى بتوبيخه صريحا ، وغيره اجترح [illegible] ، هذا ماعلم من الدين بالضرورة ، والجاهل مرتكب للأمور المحظورة .

قال (للقاعدة البيانية : وهى إذا كان هنالك نفى وقيد : سلط النفى على القيد ورفعه) أقول : ليست هذه كلية ، إذ قد يتوجه النفى على القيد والمقيد جميعا فى القضية ، كقوله تعالى « لايسألون الناس إلحافا [2] » وكقوله سبحانه « ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع [3] »

قال(وعلى هذا) أى ماذكر من القاعدة

(فالهمزة للإنكار ، والإنكار بمعنى النفى) وفيه أن الانكار هنا للتوبيخ والتقريع

---

(١) إلى أوان العيان : أى إلى وقت معاينة العذاب ، حيث لاينفع الايمان .
(٢) آية ٢٧٣ من سورة البقرة .
(٣) آية ١٨ من سورة غافر

فيكون المعنى : ماعصيت الآن ، بل جب إيمانك عصيانك ؛ فيكون نفياً للقيد . ويجوز أن يكون القيد : قيداً للنفى . والمعنى : حالة عصيانك لم تكن؛ بل زالت بإيمانك .

لما فيه من المعنى البديع .

فان التقدير . آمنت الآن ؟ أوأتؤمن الآن ؟ وهو وقت اليأس، ورؤية البأس، وقد أصررت على عصيانك وكفرك قبل ذلك « وكنت من المفسدين » أى من أهل الفساد فيما هنالك ، فى زمان قبول إيمان السالك .

والجملة حال من الفاعل فى الفعل المقدر ، المدخول عليه همزة الإنكار ، المقيد بـ« آلآن » المعبر عن زمان الاقرار ، فتأمل إن كنت من الأبرار، يظهر لك بطلان ماظهر من الفجار [١]

قال (فيكون المعنى : ماعصيت الآن ، بل جب إيمانك عصيانك ، فيكون نفيا للقيد)أراد بالقيد : جملة «وقد عصيت»فانه حال . وظن أنه للتحويل، وهذا منه تحريف للتنزيل ، وتصحيف للتأويل ، وباطل من جهة العربية عند أرباب التحصيل ، فان العصيان المقيد بقبل ذلك ، المحقق هنالك ، كيف يدخل النفى عليـــه ؟ أم كيف يتصور تحويل « آلآن » اليه ؟ فيحصل التناقض الصريح لديه .

قال (ويجوز أن يكون القيد قيداً للنفى . والمعنى : حالة عصيانك لم تكن ، بل زالت بإيمانك) وفيه أن هذا جهل آخر بالكلام ، وتبعد بالكلية عن مقام المرام فإن مآل كلامه إلى أنه توهم أن النفى دخل على « آلآن » أو « عصيت » المقيد

---

(١) لقد كان أحرى بالمؤلف أن يعف لسانه ، فلا يصف الأبرار بالفجار : فما كل ذى سقطة بفاجر ، ولا كل ذى صواب ببار ، فقد يتعثر البار ، ويصيب الفاجر ، رحم الله الفريقين ، وتجاوز عن المخطئ منهما ـ بقدر إخلاصه لعلمه ـ بمنه وكرمه !

وإذا صح إيمانه عقلا من غير معارض قطعى : حكم بما قاله الشيخ قدس سره ، ومن نحا نحوه ؛ بأنه صحيح لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه

بالقبلية ، فتارة نفى القيد ، وآخرى نفى المقيد ؛ فهو كخبط عشوا [1] : لا يدرى مافى القدام من الورا ، وكحاطب الليل [2] : لا يفرق بين مافيه الغناء والعناء ،

فالتحقيق : أن التقدير كما قدمنا قبيل ذلك . وجعل الهمزة للإنكار لا يصح هنالك ، للإجماع على حصول الايمان ، فى ذلك الآن ، وإنما عدم القبول : لحصول العيان [3] ، أو لفقد بعض الأركان .

قال (وإذا صح إيمانه عقلا) فيه أنه لا يصح الايمان الا نقلا ، وليس للعقل فيه دخل أصلا .

قال (من غير معارض قطعى) فيه أن المانع ، والنافى لايحتاج الى معارض ظنى فضلا عن مناقض قطعى . وانما المثبت عليه البرهان ، كما هو معلوم عند الأعيان ، لاسيما وسند المنع استصحاب الحكم الى آخر الزمان .

قال (حكم بما قاله الشيخ قدس سره) أى ان ثبت عنده أولا ، وأراد هذا المعنى ثانياً ، وسلم له ولم يكفر به ثالثا ، ولم يقب عنه رابعاً .

قال (ومن نحا نحوه) أراد نفسه ، فانه مانحا نحوه غيره .

قال (بأنه) أى بأن ماقاله الشيخ حكم (صحيح لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه) وهذا منه توهم سجع ، عليه رجع ، وتضمين عليه تضمين ، فإنها كلمة حق أراد بها باطلا : وهو أن كلام الشيخ ومن تبعه : هو الحق ، وما عداه يكون ضلالا . مع أن الآية

(١) يقال : خبط خبط عشواء : إذا ضرب على غير بصيرة . والعشواء : الناقة التى لاتبصر أمامها

(٢) حاطب ليل : مثل يضرب لمن يخلط فى كلامه

(٣) أى لحصول معاينة العذاب ، حيث لاينفع الايمان

وأيضا قال ابن هشام : الإنكار الإبطالى يقتضى أن مابعد الهمزة غير واقع ، وأن مدّعيه كاذب . نحو « فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون » ؛ والثانى : الإنكار التوبيخى ؛ يقتضى أن مابعده واقع ، وأن فاعله معلوم . نحو « أتعبدون ماتنحتون » انتهى . والآية من قبيل الثانى ، فيكون معنى الآية . آلآن آمنت ؟ لا . الآن ما آمنت ،

لاتصح ، إلا أن تكون صفة للقرآن العظيم ، أو نعتاً لكلام الرسول الكريم ؛ وأما غيره : فكل أحد يقبل أن يقبل قوله ويرد .

ويرده : ماورد « من أحدث فى أمرنا هذا ماليس فيه فهو رد [1] »

قال (وأيضا قال ابن هشام فى المغنى : الأول : الإنكار الابطالى يقتضى أن مابعد الهمزة غير واقع ، وأن مدعيه كاذب ، نحو « فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون ») قلت . فيه حجة عليه : حيث جعل الهمزة أولا للإنكار ، مع أن مابعد الهمزة الانكارية الإبطال غير واقعة فى الاخبار ، فيفيد نفى الايمان عنه مع الإقرار . نعم قال — متمماً لكلام المغنى — (والثانى : الإنكار التوبيخى يقتضى أن مابعده واقع ، وأن فاعله معلوم ، نحو « أتعبدون ماتنحتون » انتهى . والآية من قبيل الثانى) قلت : هذا مطابق للمبانى والمعانى

(فيكون معنى الآية : آلآن آمنت ») فيه أن صوابه : آمنت الآن .

قال (لا . الآن ما آمنت) صوابه : لا . ما آمنت الآن . على مقتضى كون الهمزة للإنكار ، بمعنى الإبطال : إذ لم يقل به أحد كما بينا ، بل قالوا : إنه وبخ على الإيمان الآنى [2] ؛ المقترن بالبأس واليأس الزمانى . وقد سبق له الإصرار على الكفر والكفران الطغيانى !

---

(١) أى مردود عليه ، غير مقبول منه .

(٢) الآنى : نسبة الى « آلآن » التى وردت فى الآية الكريمة « آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين ».

إذ مابعد الهمزة واقع على العصيان وإلا يلزم الكذب فى كلام الله تعالى، تعالى عن ذلك علوا كبيرا !

وأما: ماقبلنا إيمانك، فلا دليل عليه من الآية بإحدى الدلالات الثلاث.

ويجوز أن تكون الهمزة من قبيل العتاب والتلطف فى المقال، كقول القائل: أتضرب زيداً وهو أخوك ؟

وقوله (إذ مابعد الهمزة واقع على العصيان) صوابه. وهو الإيمان. وهذا منه مبنى على ماسبق لقلمه من الطغيان!

قال (وإلا يلزم الكذب فى كلام الله تعالى: تعالى عن ذلك علوا كبيرا) أى وإن لم تكن الهمزة التوبيخية واقعة على العصيان؛ بل على الإيمان: لزم الكذب فى كلامه تعالى حيث أثبت له العصيان بقوله « وقد عصيت » وهذه مناقضة ظاهرة بين كلاميه، ومدافعة بينة بين دليليه؛ لكن دفع ماتوهمه: هو أن إثبات الإيمان، المقيد بآلآن: لا يعارض العصيان، فيما مضى من الزمان؛ فلا يلزم الكذب فى القرآن تعالى شأنه، وتعاظم برهانه: عن التخالف فى كلامه ولو شيئاً يسيرا « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا [1] »

قال (وأما ماقبلنا إيمانك؛ فلا دليل عليه من الآية باحدى الدلالات الثلاث)

أقول: قد تقدم لك أن قبول الإيمان عند العلماء متوقف على شروط؛ هى مفقودة هنا كما أشرنا اليه سابقا، وسيأتيك بيانه التفصيلى لاحقاً.

قال (ويجوز أن تكون الهمزة من قبيل العتاب، والتلطف فى المقال: كقول القائل أتضرب زيداً وهو أخوك ؟)

أقول هذا أيضا من الإنكار التوبيخى؛ مما يكون مابعده واقعاً، وفاعله

---

(١) آية ٨٢ من سورة النساء.

ليعطفه عليه . بدليل قوله تعالى « فقولا له قولا ليناً لعله يتذكر أو يخشى »
و « لعل » من الله : واجبة الوقوع ؛ إذ الترجى فى حقه سبحانه و تعالى محال
وهـذا الكلام هو الذى نفعه فى تلك الحالة ، حيث تذكر لطفه بعباده ،
فلم ييأس من رحمته تعالى .

ملوماً وضائعاً .

وقوله (ليعطفه عليه) لا يصح أن يكون المثال المذكور نظير الآية : لأن الضرب منكر ، والأخ معروف ؛ بخلاف الآية : فإن الإيمان معروف ، والمنكر تأخيره الى وقت اليأس ؛ مع إصراره على المعصية قبل اليأس .

بل نظيره : قولك للسارق المأخوذ للعقوبة ، المظهر للتوبة : أتتوب الآن ؛ وطالما عصيت فى سابق الزمان ؟

قال (بدليل قوله تعالى « فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى » ولعل من من الله تعالى : واجبة الوقوع ؛ إذ الترجى فى حقه سبحانه محال)

أقول : كأنه غفل عما قاله المحققون ، من أن معناه : باشرا أمر الدعوة على رجائكما أو طمعكما ، أنه يثمر ولا يخيب سعيكما ، فان الراجى يجتهد ، والآيس متكاف .

وحاصله أن الترجى راجع إلى المخاطب .

قال (وهذا الكلام هو الذى نفعه فى تلك الحالة ، حيث تذكر لطفه بعباده ، فلم ييأس من رحمته تعالى)

فيه أنه لم يسمع هذا الكلام ، ولا نفعه فى ذلك المقام .

واعلم أنه مما يدل على عدم إيقانه ، ونفى قبول إيمانه : أنه لو صح إيمانه اقبله ، ولو قبله لما أهلكه ، كما هو عادة الله تعالى فيمن قبله ، بل ولا أهلك قومه ، لكون إيمانه سببا لإيمانهم ، ورجوعهم عن طغيانهم ، وعلى التنزل فى شأنه ، وقبول إيمانه أمره عيسى عليه السلام بتكفينه وتجهيزه بالصلاة عليه وتدفينه . ولو فعل لبلغ الينا ه

. . . .

وما خفي علينا .

وأيضاً لم يكن يذمه الله فى مواضع من كتابه ، لو صح إيمانه بعد حجابه ، مع أنه قد ثبت عنه عليه السلام ، وعن أصحابه الكرام، وأتباعه العظام ، من العلماء الأعلام ، ماهو صريح فى المرام : فقد أخرج ابن أبى حاتم : عند قوله تعالى « حتى إذا أدركه الغرق » الآية . عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ؛ قال « لما خرج آخر أصحاب موسى ، ودخل آخر أصحاب فرعون : أوحى الله تعالى إلى البحر أن أطبق عليهم . فخرجت أصبع فرعون بـ«لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل » قال جبريل فعرفت أن الرب رحيم ، وخفت أن تدركه الرحمة » أى الظاهرية الحسية ، المتعلقة بخلاصه من الغرق إلى حالته الأولية ، فان رحمته تعالى تعم النعم الدنيوية والأخروية ! وفى الحقيقة : خوف جبريل كان على بنى إسرائيل . قال : « فدمسته [1] بجناحى ، وقلت : آلآن وقد عصيت قبل ؟! » فلما خرج موسى وأصحابه ؛ قال من تخلف فى المدائن من قوم فرعون: ماغرق فرعون ولا أصحابه، ولكنهم فى جزائر البحر يتصيدون؛ فأوحى الله إلى البحر : أن الفظ فرعون عريانا ؛ فلفظه عريانا ؛ فهو قوله تعالى «فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية » أى لمن قال إن فرعون لم يغرق .

وكانت نجاته عبرة ، ولم تكن نجاة عافية !

ثم أوحى إلى البحر : أن الفظ مافيك ؛ فلفظهم على الساحل ؛ وكان البحر لا يلفظ غريقا ، بل يبقى فى بطنه حتى يأكله السمك، فليس يقبل البحر غريقا الى يوم القيامة [2]

(١) يقال : دمسه فى الأرض اذا دفنه حياً .

(٢) هذا قول غريب ؛ فالبحر هو البحر : قبل إغراق فرعون ، وبعد إنجاء بدنه ؛ فكم من غريق لفظه البحر ، وكم من غريق أطبق عليه البحر فلم يفلته ؛ حتى أكله السمك ؛ بل وقد يأكل هذا السمك سمك آخر ؛ فيندثر الغريق فى جوف السمك ، ويندثر السمك فى جوف سمك آخر ؛ وسبحان الخالق القادر القاهر !

هذا وليس بمنج فرعون نجاة بدنه ، ولا بمخزيه يوم القيامة أكل السمك له !

. . . .

وأخرج أحمد ، والترمذى وحسنه ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم ، والطبرانى ، وابن مردويه ، عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما ؛ قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « لما أغرق الله عز وجل فرعون ؛ قال : آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل . قال جبريل : يامحمد لو رأيتنى وأنا آخذ من حال البحر [١] فأسده فى فيه مخافة أن تدركه الرحمة [٢] »

وأخطأ الشارح حيث قال : وجعل جبريل فى فيه حال البحر : لايضره بعد تمام الإيمان ؟ وإنما يمنعه من النجاة من الغرق ؛ فهى الرحمة التى خاف جبريل أن تدركه من الحق ؛ لأنه إذا نجا ربما يتغير عن هذا الإيمان ؛ وإلا فجبريل لا يرضى بالكفر فان الرضا بالكفر : كفر ! انتهى .

وهذا ظاهر البطلان : فان جبريل كيف يهين من ختم له بالإيمان ؛ مع أنه من المستغفرين لأهل الإيقان ؟ ! أم كيف يتصور أن يكون عدم إدخال الحال فى فيه سببا للنجاة من الغرق فى الحال ؟ أم كيف يتحقق التغير عن الإيمان لو نجا فى المآل ؟ !

---

(١) حال البحر : طينه . والحال : الطين الأسود

(٢) هذا الحديث غريب — رغم تحسين الترمذى ؛ ورواية أساطين المحدثين له — فليس بالمعقول ، ولا بالمقبول : أن يحول جبريل عليه السلام بين عبد من عباد الله ، ورحمة الله ! وهو ممن وصفهم الله تعالى بقوله « لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون مايؤمرون » فهل أمره الله تعالى بأن يضع الطين فى فم فرعون ؛ خشية أن يكون من المؤمنين ؟ ! وهل إذا حال جبريل بين فرعون وبين الإيمان — مع إرادته الإيمان ونطقه به — يكون ذلك سبباً فى موته على الكفر وحرمانه من رحمة الله ؟ !

ومن عجب أن يؤيد المؤلف هذا الحديث تأييداً تاماً ويجعله سنداً له فيما يقول ؛ ويسوقه من عدة طرق ، وبعدة أسانيد ؛ وبعد ذلك يوجهه ليستدل به على مايريد !

. . . .

فما هذا إلا من هذيانات وزندقيات ، فانه تعالى هو المعطى ، وهو المانع وهو العاصم فى الطريقة .

وأخرج الطيالسى ، والترمذى وصححه ، وابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبى حاتم ، وابن حبان فى صحيحه ، وأبو الشيخ ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى شعب الإيمان ؛ عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما . قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم . « قال لى جبريل لو رأيتنى وأنا آخذ من حال البحر فأسده فى فى فرعون مخافة أن تدركه الرحمة »

وفى رواية لابن مردويه : « حتى لا يتابع الدعاء ؛ لما أعلم من فضل رحمة الله »

قلت : فيه إشارة إلى عدم اعتبار ايمانه ؛ وإنما خاف أن يدعو ويطلب الخلاص فينجيه الله تعالى من فضله وإحسانه !

وفيه إيماء أيضاً إلى إظهار أن إيمانه إنما هو بمجرد لسانه ، فحشا فمه بالحال ، ليمنعه عن المقال ، بلا تحقق البال ؛ لأنه لو كان إيمانه بالقلب على وجه الكمال ، لكان حشو فمه بالحال من المحال ، والله تعالى أعلم بالحال .

وأخرج الطبرانى فى الأوسط ، عن أبى هريرة ، عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « قال لى جبريل : ماكان على الأرض شىء أبغض إلىّ من فرعون ؛ فلما آمن جعلت أحشو فاه حمأة [1] — وأنا أغطه [2] — خشية أن تدركه الرحمة »

وأخرج ابن جرير ، والبيهقى فى شعب الإيمان ، عن أبى هريرة . قال : قال لى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : « قال لى جبريل : لو رأيتنى يا محمد وأنا أغط فرعون باحدى يدىّ ، وأدس من الحال فى فيه مخافة أن تدركه رحمة الله فيغفر له » أى مغفرة

---

(١) الحمأة : الطين الأسود . قال تعالى « ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمإ مسنون » والمسنون : المتغير

(٢) غطه فى الماء : غطسه

. . . .

صورية[١] ؛ كما قال تعالى « وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون [٢] »

وأخرج ابن مردويه ، عن ابن عمر : سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول «قال لى جبريل : ماغضب ربك على أحد غضبه على فرعون ؛ إذ قال : ما علمت لكم من إله غيرى . وإذ قال : أنا ربكم الأعلى . فلما أدركه الغرق : استغاث ، وأقبلت أحشو فاه مخافة أن تدركه الرحمة »

فهذا الحديث يبين أن مراده بقوله « آمنت » لم يكن إلا الاستغاثة بالإخلاص ، لا أنه كان مراده الإيمان على وجه الإخلاص ؛ وبهذا يزول الإشكال من إحشاء جبريل فمه بالحال ، فى تلك الحال ، لأنه لايتصور مثل هذا الفعل من جبريل الأمين، النازل على المرسلين ، لتحصيل إيمان الخلائق أجمعين ، بأحد الخلائق ، بعد صيحة إيمانه، وقبول إيقانه، المستحق لإكرامه وإحسانه.

وأخرج أبو الشيخ ، عن أبى أمامة . قال : قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « قال لى جبريل : ما أبغضت شيئا من خلق الله : ما أبغضت إبليس ؛ يوم أمر بالسجود فأبى أن يسجد . وما أبغضت شيئا أشد بغضا من فرعون؛ فلما كان يوم الغرق خفت أن يعتصم بكلمة الإخلاص [٣] » أى بدعوة الخلاص، واستغاثة الخواص « فينجو،

---

(١) لاندرى ماهى المغفرة الصورية التى عناها المؤلف ؛ وكل مانعرفه : أن لله تعالى مغفرة: تنجى من ينالها من غضبه وعذابه ! وقد استدل المؤلف على المغفرة الصورية بقوله تعالى « وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون » ولا دليل فى الآية لما أراده ؛ وهى إن دلت على شىء ؛ فلا تدل إلا على أنه تعالى لايعذب المؤمنين المستغفرين . أما المغفرة الصورية ؛ فهى من شأن العباد : لنفاقهم وفساد قلوبهم ! وحاشا لله أن يفعل مذمة أو نقيصة ؛ وقد نهانا عن المذام والنقائص ؛ تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا !

(٢) آية ٣٣ من سورة الأنفال

(٣) كلمة الإخلاص : هى « لا إله إلا الله » وهى كلمة النجاة والخلاص؛ قولا واحداً: وليست بدعوة ولا استغاثة .

. . . .

فأخذت قبضة من حمأة ، فضربت بها فى فيه ، فوجدت الله عليه أشد غضباً منى : فأمر ميكائيل فأتاه فقال : آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين [١] »

فهذا الحديث صريح على اشتداد غضب الله تعالى ، وملائكته المقربين ، بعد قوله « آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين »

ولا يكون اشتداد الغضب ، إلا على الكافر بالرب ، لا على من خرج من الدنيا طاهراً مطهراً من الأقذار ، ولم يكتسب شيئاً من الأوزار ، فتأمل هداك الله إلى طريق الأبرار ، وحماك عن سبيل الفجار والكفار [٢]

وأخرج ابن أبى حاتم ، عن السدى ، قال « بعث الله اليه ميكائيل ليعيره ، فقال : آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين » وهو لا ينافى أن جبريل قال له أيضا هذا القول .

وهذه الأحاديث الصحيحة ، دالة على كفر فرعون دلالة صريحة ، من أنكرها

---

(١) لازلنا نكرر أن هذه الأحاديث — رغم تلونها وتكررها ، وتعدد رواياتها ورواتها — تحمل معنى بغيضا كريها ؛ لا ترتاح نفس المؤمن اليه ، ولا ترتضيه سماحة الدين ويسره ، أما معانى الكتاب الكريم ؛ فهى حجج واضحات ، وآيات بينات ؛ كيف لا ؛ وهو الكتاب الذى « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد »

(٢) لم يقل أحد بأن فرعون خرج من الدنيا طاهراً مطهراً من الأقذار ، وأنه لم يكتسب شيئا من الأوزار ؛ وكيف يستقيم ذلك مع قول الحكيم العليم ، عن فرعون الزنيم اللئيم « يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار وبئس الورد المورود » وقوله تعالى عن آله « ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب » وإنما مناط الخلاف : فى انتقاله — عند غرقه — من الكفر إلى الإيمان ، ومن الشك إلى الإيقان ؛ أما شدة العذاب ، وورود النيران ؛ فلتعلق حقوق العباد به ؛ من فتك ، وقتل ، وتشريد !

. . . .

يستحق التكفير والتعزير والفضيحة [١] !

هذا، وقال القرطبي: وإنما فعل ذلك جبريل عقوبة لفرعون على عظم جرمه، أو لأن الله تعالى أعلمه أنه لو نجا: لا يؤمن. ولذا قال موسى: «ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم [٢]» أى امنعهم الإيمان، كما قال ابن عباس [٣].

مع أن حكم الرسل عليهم السلام استدعاء إيمان قومهم، ولا يجوز أن يدعو نبي على قومه بعدم الإيمان إلا بإذن من الله تعالى.

وقد استدل الماتريدية [٤] بالآية، على أن الرضا بالكفر: إنما يكون كفراً، إذا رضى به لنفسه، وأما إذا رضى بكفر غيره فلا. ذكره فى التأويلات.

---

(١) لقد تكلمنا فى هذه الأحاديث فى الصفحات المتقدمة؛ قبل أن نطلع على ما كتبه المؤلف هنا من استحقاق منكرها للتكفير، والتعزير والفضيحة!
وكيف يستحق التكفير، والتعزير، والفضيحة، من يربأ بملائكة الرحمن من الوقوع فى الدنايا والخطايا، ويباعد بينهم وبين العصيان والكفران، وهم الذين وصفهم خالقهم بقوله: «بل عباد مكرمون، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون... لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون» وليس فيما أمرهم به الرءوف الرحيم: أن يحولوا بين عباده وبين الإيمان به، أو بينهم وبين رحمته، سواء كان الحال بينه كافراً أو مؤمناً، عاصياً أو مطيعاً، مستحقاً للرحمة أو غير مستحق لها!
وقد نسبوا من قبل إلى الملائكة المكرمين: العصيان والكفران عند آية هاروت وماروت. انظر — إن شئت المزيد — كتابينا: الفرقان، وأوضح التفاسير

(٢) آية ٨٨ من سورة يونس

(٣) أى كما قال ابن عباس فى حديثه عن الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم صفحتى: ٥٢ و ٥٣ من هذا الكتاب

(٤) الماتريدية: طائفة تدين بالاسلام وتشذ عن اجماع المسلمين

. . . .

ثم اعلم أن الله تعالى قال فى ذيل هذه القصة ، إشارة إلى أن إيمان فرعون كان حال الغصة : « إن الذين حقت عليهم كلمة ربك[١] » أى لعنته وسخطه ! أو قوله : هؤلاء فى النار ولا أبالى [٢] « لا يؤمنون » أى إيمانا نافعا ، وعن عذاب النار دافعا « ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم [٣] » فيؤمنوا إيمانا حينئذ لا ينفعهم ، وعن العذاب لا يدفعهم :

وفيه دلالة على أن الكفار كلهم يؤمنون إيمان اليأس ، حال البأس ؛ ولا يعتبر منهم ذلك الايمان ، لما سبق من البيان .

ومن نقل الإمام حافظ الدين النسفى ؛ فى شرح عقيدته ، عن الإمام أبى حنيفة : أنه لا يدخل النار إلا مؤمن . فقيل له فى ذلك ، فقال إنهم حين يدخلون النار ، لا يكونون إلا مؤمنين .

وقد قال تعالى « فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ماكانوا به يستهزئون . فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التى قد خلت فى عباده وخسر هنالك الكافرون[٤] »

ثم قال تعالى فى هذه السورة ، عقيب هذه القضية « فلولا كانت قرية آمنت » [٥] ومعناه : فلم تكن أهل قرية آمنت عند معاينة العذاب « فنفعها إيمانها » أى حال البأس « إلا قوم يونس » فانهم نفعهم فى ذلك الوقت . والاستثناء منقطع ، وتقديره

(١) آية ٩٦ من سورة يونس

(٢) كما ورد فى الحديث القدسى : « هؤلاء فى النار ولا أبالى وهؤلاء فى الجنة ولا أبالى » وهو موضع نظر .

(٣) آية ٩٧ من سورة يونس

(٤) الآيات ٨٣ وما بعدها من سورة غافر

(٥) آية ٩٨ من سورة يونس .

وأما قصة قوم يونس عليه السلام، فلا تنافى ماقلناه .

أما أولا : فلأنها مفيدة نفع الإيمان فى كشف الخزى فى الحياة الدنيا مع أن الاستثناء منقطع، والتوبيخ المأخوذ من الآية لدلالته لايضرنا ؛ فانه كم من توبيخ جاء فى القرآن فى حق المؤمن العاصى، وكذا التكرار فى ذكر فرعون وذمه ولعنه.

لكن قوم يونس « لما آمنوا » — حين رأوا العذاب عياناً، أو دليل العذاب برهانا — « كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين » وهو وقت انقضاء آجالهم .

فهذا إشارة — والله أعلم — إلى أنه لو كان إيمان البأس — مع عدم نفعه فى الآخرة — سببا لكشف العذاب فى الدنيا لغير قوم يونس تحويلا لكشفه عن فرعون لكن لن تجد لسنة الله تبديلا !

ومتى عرفت هذا المقال، تبين لك الحال من المحال، وتبين لك إبطال ماقاله الجلال بطريق أهل الجدال :

(وأما قصة قوم يونس عليه السلام، فلا تنافى ماقلناه . أما أولا : فلأنها مفيدة نفع الايمان فى كشف الخزى فى الحياة الدنيا، مع أن الاستثناء منقطع)

ثم قال (والتوبيخ المأخوذ من الآية لدلالته لايضرنا، فانه كم من توبيخ جاء فى القرآن : فى حق المؤمن العاصى)

قلت : بينهما بون بين، وفرق هين لين، فإن فرعون وبخ على استمرار كفره، إلى أوان يأسه من عمره . بخلاف المؤمن فإنه لو وبخ على عصيانه، لحرص على بقاء إيمانه !

قال (وكذا التكرار فى ذكر فرعون وذمه ولعنه) يعنى أن القرآن مشحون بذكر مذمة فرعون فى مواضع متعددة فى قصة موسى .

فانه قال سبحانه وتعالى « إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً فأولئك يدخلون

منها : « كذبت قبلهم قوم نوح وعاد ، وفرعون ذو الأوتاد ، وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة أولئك الأحزاب . إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب [1] »

وقوله سبحانه : « كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود . وعاد وفرعون وإخوان لوط . وأصحاب الأيكة وقوم تبع . كل كذب الرسل فحق وعيد [2] »

فهذا نص صريح ، ودليل صحيح ، على كفر فرعون اللئيم ، وتخليده فى عذاب الجحيم حيث أخبر سبحانه بعد موته : على تكذيبه المرسلين ، وإدراجه مع المكذبين !

ثم أكده تعالى بقوله « كل كذب الرسل » فان تكذيب موسى كتكذيب الكل .

ثم بين أن تحقيق الوعيد ، والعذاب الشديد ، حاصل وواقع بهم . وقد أبعد عن المعنى ، من حمل العقاب : على عذاب الدنيا ، مع أنه يلزم منه عذاب الأخرى .

وكذا مصرح بلعنه فى أماكن مختلفة : منها قوله تعالى « واستكبر هو وجنوده فى الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون . فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين . وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لا ينصرون . وأتبعناهم فى هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين [3] »

فهذه الآية لو لم يكن غيرها فى القرآن ، لكفت للدلالة والبرهان ، على كفر فرعون المقرون بالطغيان، حيث لم يفرق بينه وبين جنوده فى جميع ماذكر من الشان ، بل صرح بخصوصه فى آية أخرى ، حيث قال : « فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم وهو مليم [4] » أى آت بما يلام عليه ، من الكفر والفساد العظيم !

قال (فانه قال سبحانه وتعالى إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً فأولئك يدخلون

---

(١) الآيات ١٢ - ١٤ من سورة ص
(٢) الآيات ١٢ - ١٤ من سورة ق
(٣) الآيات ٣٩ - ٤٢ من سورة القصص
(٤) آية ٤٠ من سورة الذاريات

الجنة ولا يظلمون شيئاً » واللعن جاء فى القرآن فى حق المؤمنين فى غير موضع منها « ومن يقتل مؤمنا متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه

الجنة ولا يظلمون شيئاً »)

وفيه أنه لم يثبت توبته وإيمانه ، وأيضا لم يذم أحد بعد توبته وإحسانه .

قال (واللعن جاء فى القرآن فى حق المؤمنين فى غير موضع) أى فى مواضع كثيرة، وهو غير صحيح . بل سبة كبيرة !

نعم جاء « ألا لعنة الله على الظالمين » وليس ذلك مختصاً بالمؤمنين .

ألا ترى أن المحققين من أهل السنة والجماعة : جوزوا لعن قتلة الحسين رضى الله تعالى عنه ، ولم يجوزوا لعن يزيد بعينه ، مع أن الإمام أحمد قال بردته ، لكونه لم يعلم يقينا أنه مات على كفره [1].

---

(١) العجب كل العجب ممن يتحرج من لعن من رضى بقتل الحسين ، ألم يرسل يزيد جنوده لقتاله ؟ ألم يكن الحسين خيراً من يزيد أبا وأما ؛ وخالا وعماً ؟ ! أليس الحسين ريحانة الرسول وابن ابنته ؟ من أحبه : أحبه الرسول ، ومن أبغضه : أبغضه الرسول ! ومن أبغضه الرسول : فقد خسر الدنيا والآخرة !
وكيف نتحرج من لعن اليزيد ، وقد أخذت له البيعة من المؤمنين قوة وقسراً وهو يعبث مع القيان ويعاقر بنت الحان ! ولا يتسع المقام لإيراد مساوئ اليزيد ومن ولاه ، ومن والاه ؛ ومحاسن الحسين ومن أحبه ومن ناصره ! ويكفى الحسين فخراً : قول جده فيه : « حسين منى وأنا من حسين . من أحب حسيناً فقد أحبنى ، ومن أبغضه فقد أبغضنى »
لعن الله تعالى اليزيد ، ومن رضى عن عمله ، ومن حارب فى صفوفه ! ولعن الله تعالى من أعان أفسق الناس وأجهلهم ، على أصلح الناس وأعلمهم ! ورضى الله تعالى عن الحسين ، وعمن حارب دونه ، ومن سار فى ركابه ، ومن استشهد معه ! وحشرنا فى زمرتهم بمنه وكرمه !

ولعنه وأعد له عذابا عظيما »

وكذا فى الحديث الشريف على قائله أفضل الصلاة وأكمل التحيات.

ولا يقول أهل السنة والجماعة : بأن المؤمن يخرجه ذلك عن إيمانه.

وفرعون قد دخل تحت قوله تعالى « إلا من تاب وآمن » فان القرآن ناطق بإيمانه. وأما قوله جل شأنه « يأخذه عدوٌّ لى وعدو له » فان اسم الفاعل من جملة المشتق حقيقة حال التلبس بالمعنى، أو جزئه الأخير، لا حال النطق على الأصح عند الأصوليين، وفى غيره مجاز، والمجاز لابدّ له من قرينة. وأى قرينة

ثم قوله (منها) أى من الآيات التى فيها لعن المؤمنين (ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيما») وفيه أنه لعن الفسقة، وأكلة الربا، وشربة الخمر، وفعلة الزنا، لعموم لا بخصوص فردمعين لم يعرف كفره عند خروجه من الدنيا بدليل مبين، مع أن الآية المذكورة مؤولة عند أهل السنة والجماعة، ومحمولة على من قتل مؤمنا متعمداً من حيث إنه مؤمن، أو اعتقد جواز قتله، أو استحله، وهو محسن.

(وكذا فى الحديث الشريف على قائله أفضل الصلاة وأكمل التحيات) يعنى حيث قال « لعن الله آكل الربا وموكله وكاتبه وحاسبه » و « لعن الله شارب الخمر وبائعها وحاملها والمحمولة اليه » وأمثالها، وقد عرفت ما فيهما.

قال (ولا يقول أهل السنة والجماعة : بأن المؤمن يخرجه ذلك) أى اللعن (عن إيمانه) قد عرفت أنه بين الملعون بنفسه بخصوصه، وبين جنس الملعون بوصفه.

قال (وفرعون قد دخل تحت قوله تعالى « إلا من تاب وآمن » فان القرآن ناطق بإيمانه) فيه أنه ما وقع توبته وإيمانه، إلا حين لم يصح إيقانه؛ فهو غير معتبر كما قدمنا بيانه نقلا، وبرهانه عقلا.

قال (وأما قوله جل شأنه « يأخذه عدو لى وعدو له » فان اسم الفاعل من جملة المشتق حقيقة حال التلبس بالمعنى، أو جزئه الأخير، لا حال النطق على الأصح عند الأصوليين، وفى غيره مجاز، والمجاز لابد له من قرينة. وأى قرينة

دلت على أنه مات على الكفر ؟ فلا بد للقائل بالكفر من إبرازها ليتكلم عليها ، مع أن المجاز لايعارض الحقيقة .

وللقائل أن يقول : قوله تعالى « عدو لى » من باب المشاكلة ، لأنه عدو لموسى عليه السلام ، وليس بعدوّ لله تعالى حقيقة .

دلت على أنه مات على الكفر ، فلا بد للقائل بالكفر من إبرازها ليتكلم عليها ، مع أن المجاز لا يعارض الحقيقة)

قلنا : بعد تسليم المقدمات قد قدمنا الآيات ، والأحاديث البينات ، الصريحة على كفر فرعون ، فالمتكلم على إيمانه بقى بلا عون

وقد سبق أن كفره من أول أمره تحقق ، فدعى إيمانه يحتاج إلى قرينة على أنه مات على الايمان ، وخرج عنقه من ربقة [1] الكفر والطغيان !

مع أن قوله : آمنت الآن ؟ المربخ على تأخير الإيمان ، إلى وقت العيان [2] ، أقوى قرينة نطق بها القرآن .

ثم قال (وللقائل أن يقول : قوله تعالى « عدو لى [3] » من باب المشاكلة لأنه عدو لموسى عليه السلام ، وليس بعدو لله تعالى حقيقة) فيه أن هذا غفلة عظيمة ، وزلة جسيمة ، سببها الجهل بالقواعد الشرعية النقلية ، والتغلغل فى المقاصد الفلسفية العقلية .

وبيانه : أن كون من يكون عدواً لموسى ، أو لغيره من الأنبياء والملائكة ، فهو عدو لله تعالى ، كما أخبر الله به فى كتابه ، وبينه فى خطابه : « من كان عدوا لله وملائكته

---

(١) الربقة . العروة . والمراد بها : الحبل الذى يشده إلى الكفر ، والقيد الذى يقيده به

(٢) العيان : أى وقت معاينة العذاب

(٣) آية ٣٩ من سورة طه

وأما الذى احتج بقوله تعالى « حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنى تبت الآن ، ولا الذين يموتون وهم كفار أولئك أعتدنا لهم عذابا أليما »

فالمراد به : ملائكة الموت ، كما هو مصرح به فى كتب التفاسير .

ورسله وجبريل وميكال[١] فان الله عدو للكافرين »

قال البيضاوى : أراد بعداوة الله تعالى : مخالفته عناداً ، أو معاداة المقربين من عباده. ووضع الظاهر موضع المضمر : للدلالة على أنه تعالى عاداهم لكفرهم ، وأن عداوة الملائكة والرسل : كفر !

ثم قال (وأما الذى احتج بقوله تعالى « حتى إذا حضر أحدهم الموت... الآية) يعنى قوله تعالى « وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنى تبت الآن ولا الذين يموتون وهم كفار[٢] »

قال (فالمراد به ملائكة الموت) أى على حذف مضاف

قال (كما هو مصرح به فى كتب التفاسير) لعله فى غير المشاهير[٣] ، والمعروف

---

(١) ميكال : ملك من ملائكة الرحمن . قيل : إنه موكل بالمطر ، وبأرزاق العباد ، واسمه ميكال ، وميكائيل ، وميكائين

(٢) آية ١٨ من سورة النساء

(٣) لقد أجمع كبراء المفسرين ومشاهيرهم على تأويل « حتى إذا حضر أحدهم الموت » بملائكة الموت .

قال الطبرى : ضمن الأقوال التى أوردها فى تفسير هذه الآية : إذا حشرج أحدهم بنفسه ، وعاين ملائكة ربه قد أقبلوا اليه لقبض روحه .

وقال أيضا فى تفسير قوله تعالى « ثم يتوبون من قريب » أى قبل معاينة ملك الموت

وقال أيضاً : الدنيا كلها قريب .

وروى فيما روى — بروايات عدة — منها : عن قتادة عن أبى قلابة ، قال : ذكر لنا أن إبليس لما لعن وأنظر ، قال : وعزتك لا أخرج من قلب ابن آدم مادام

ولئن قلنا : المراد الموت نفسه ، فالمراد أن الروح وصلت إلى الغرغرة

علامته ، ومآلها واحد ، والآية لنا شاهد ، ومن أنكره فهو معاند ، فان قوله : تبت الآن . بعينه مثل قوله : آمنت الآن ، حيث لا تنفعه التوبة والإيمان ، في ذلك الوقت والزمان : لحصول البيان ، إما بنفس الموت ، أو بملائكة الرحمن .

قال (ولئن قلنا : المراد الموت نفسه ؛ فالمراد أن الروح وصلت إلى الغرغرة)

قلت : وهذا هو الصحيح ، الوارد في الحديث الصحيح ، بالتصريح : « إن الله يقبل توبة العبد مالم يغرغر » رواه الإمام أحمد ، والترمذي وابن ماجه ، عن ابن عمر .

فيه الروح . فقال تبارك وتعالى : وعزتي لا أمنعه التوبة مادام فيه الروح .

ورأى الطبري واختياره : « ثم يتوبون » قبل مماتهم . في الحال التي يفهمون فيها أمر الله تبارك وتعالى ونهيه . وقبل أن يغلبوا على أنفسهم وعقولهم . وقبل حال اشتغالهم بكرب الحشرجة. ورغم الغرغرة . فلا يعرفوا أمر الله ونهيه . ولا يعقلوا التوبة لأن التوبة لاتكون توبة : إلا ممن ندم على ما سلف منه . وعزم على ترك المعاودة .

وجاء في تفسير القرطبي ، في تأويل ذلك : كل ما كان قبل الموت : فهو قريب . . . قبل معاينة الملائكة والسوق . . . قبل السوق والنزع . ومعاينة ملك الموت .

وجاء في تفسير الألوسي : وعاين ملك الموت ، وانقطع حبل الرجاء .

وفي رأيي : أن هذه الآية لا تحتاج إلى كل هذه الأقوال ؛ إذ هي تحمل معناها في مبناها : يقول الله تعالى : « إنما التوبة على الذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليما حكيما » فاذا زعم زاعم أن هذه التوبة تجوز في سائر الحياة ؛ مادام في الإنسان عرق ينبض ، ونفس يتردد ؛ فان باقي الآيات ، وسياق القرآن ينفيان هذا الزعم :

قال تعالى « وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن » فنفى تعالى جواز التوبة لهم ، وقبولها منهم ؛ فاذا قلنا بجوازها وقبولها عند اليأس ، ووقت البأس : كان ذلك قسراً عليها ، وإلجاءً لها !

وخير الأقوال وأصحها : اختيار الطبري ؛ الذي قدمناه وأشرنا اليه .

وهذا لايكون دليلا قطعيا بعدم قبول إيمان فرعون ، فإنه ليس بمعلوم أنه ماقال هذا الكلام إلا عند الغرغرة ، بل آية « آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين » قرينة بأنه قال ذلك فى غير حال الغرغرة ، بشهادة طول الكلام ، مع طول الملام ،

قال الإمام محي السنة ، فى معالم التنزيل « وليست التوبة للذين يعملون السيئات » أى المعاصى « حتى إذا حضر أحدهم الموت » أى وقع فى النزع « قال إنى تبت الآن » وهى حالة السوق[1] حين تساق الروح : لايقبل من كافر إيمان ، ولا من عاص توبة قال تعالى « لم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا »[2] ولذلك لم ينفع إيمان فرعون حين أدركه الغرق . انتهى

وظهوره لايخفى ؛ فهو دليل لنا لاعلينا ، وإن تعلق به فى أحوالنا .

قال (وهذا لايكون دليلاقطعياً بعدم قبول إيمان فرعون) قلت : هذا مكابرة ، ومعاندة ظاهرة .

وقوله (فانه ليس بمعلوم أنه ماقال هذا الكلام إلا عند الغرغرة) قلت : قوله تعالى « آلآن » صريح فى هذا البيان .

ثم العجيب من انقلاب حاله ، من دعوى إثبات إيمانه ، إلى موضع حصول كفرانه ؛ مع أن الكفر تحقق له فيما سبق ، ويكفيه الانسحاب فيما التحق ، فمجرد المنع مردود عند أهل الحق .

قال (بل آية « آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين» قرينة بأنه قال ذلك فى غير حال الغرغرة ، بشهادة طول الكلام ، معطول الملام)

---

(١) الحالة التى تخرج فيها الروح من الجسد ، وتساق إلى مقرها .
(٢) آية ٨٥ من سورة غافر

والله تعالى لايخاطب جمادا .

وإيمان اليأس الذى لاينفع شرعاً : هو الإيمان يوم القيامة . وهو سنة الله تعالى .

قلت : هذا الكلام يدل على جمود فهمه ، وخمود طبعه : حيث لم يعلم أن الغرغرة قابلة لأن تكون أزمنة قصيرة أو طويلة .

ثم قوله (والله تعالى لايخاطب جماداً) كلام من لا يعرف الكلام .

أما أولا — فقد تقدم أن المخاطب : إنما هو جبريل أو ميكائيل .

وثانياً — أن الله تعالى يخاطب الجماد وغيره : قال تعالى للسماء والأرض « ائتيا طوعا أو كرها » بل ولا تتحرك ذرة ، ولا تسكن ؛ إلا بأمره تعالى .

وثالثاً - أن الميت لا يصير جمادا بالموت ؛ بل كما قال على كرّم الله تعالى وجهه : الناس نيام ، فاذا ماتوا انتبهوا .

وقد خاطب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم كفار قليب بدر [١] - وهم موتى - بقوله : « قد وجدنا ماوعدنا ربنا حقا ، فهل وجدتم ماوعد ربكم حقاً »

وفى رواية: قال عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه : يارسول الله كيف تكلم أجساداً لا أرواح فيها ؟ فقال عليه الصلاة والسلام « ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ؛ غير أنهم لا يستطيعون أن يردوا شيئا »

قال(وإيمان اليأس الذى لا ينفع شرعا : هو الايمان يوم القيامة . وهو سنة الله تعالى)

---

(١) القليب : البئر قبل أن تطوى . وقد ألقى المؤمنون قتلى الكفار - لكثرتهم - فى قليب بدر ؛ فى الموقعة الشهيرة التى انتصر فيها المسلمون على الكافرين نصراً مبيناً ، وأعز الله بها الإسلام . ورفع رايته !

وبدر : موضع بين الحرمين ؛ سمى باسم بئر حفرها بدر بن قريش ؛ وبها سميت الموقعة التى قتل فيها خلق كثير من كبراء المشركين وعظمائهم ، واستشهد فيها بعض فضلاء الصحابة رضوان الله تعالى عليهم .

وإلا يلزم الكذب فى كلامه تعالى ، حيث قال « فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين »

وأما فى الدنيا فانه مقبول ، بدليل قوله تعالى « قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم »

فلم يقيد جل شأنه وقتا دون وقت ، ولا شخصا دون شخص ، ودخل إيمان

قلت : إيراد هذا الكلام بصيغة الحصر ؛ يدل على أنه غير عارف بالشريعة الشاملة بمعرفة الكتاب والسنة ، بل لقواعد العقائد المعتبرة . فإن إيمان اليأس المجمع عليه عند العلماء : هو الذى تقدم ، من أنه عند حضور علامات الموت . أو مشاهدة العذاب الدنيوى .

ثم قال (وإلا يلزم الكذب فى كلامه تعالى ، حيث قال : « فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين » [1])

أقول : قد عرفت معنى الآية فيما سبق ، ولا يلزم الكذب فى الكلام المطلق ، والاستثناء المحقق ، مع أن الاستثناء منقطع عند أهل الحق .

قال (وأما فى الدنيا فانه مقبول ، بدليل قوله تعالى « قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم [2] » فلم يقيد - جل شأنه - وقتا دون وقت ، ولا شخصا دون شخص ، ودخل إيمان

---

(١) آية ٩٨ من سورة يونس

(٢) آية ٥٣ من سورة الزمر

اليأس وغيره .

وقد تقدم قوله تعالى « إنه لاييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » وما عليها من الكلام .

وقصة أسامة تقتضى أن إيمان اليأس مقبول شرعاً .

وأما قوله تعالى « إن الله لايغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء » فالمعنى أن الله تعالى لايغفر للمشرك ؛ مادام على شركه ، ومات عليه ؛

اليأس وغيره) قلت : الأصل المعتمد ، والفصل المعين : حمل المطلق على المقيد ، والمجمل على المبين .

مع أن قوله : ودخل إيمان اليأس : هو إيمان يوم القيامة ، فيلزم أن تنفعه الندامة ، وترتفع عنه الملامة ، وهو مخالف لإجماع الملة ، فضلا عن اتفاق الأمة .

قال (وقد تقدم قوله تعالى « إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » وما عليها من الكلام)

قلت : وقد تقدم ماعليها من الكلام ، وأنه لادخل لها فى المقام ، ولا يحصل بها المرام .

قال (وقصة أسامة تقتضى أن إيمان اليأس مقبول شرعا)

قلت : هذا جهل بالفرق بين الاكراه واليأس بلا اشتباه ، فان الأول مقبول إجماعا ، وإن الثانى مردود اتفاقا ، مع أنه لم يعرف أن صاحب أسامة كان مؤمنا سابقا ، لو أظهر الإيمان عند السيف لاحقا ؛ أو كان فى إيمانه منافقا ؛ فيكون لقوله « هلا شققت عن قلبه » موافقا .

قال (وأما قوله تعالى « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء[1] » فالمعنى : أن الله تعالى لا يغفر المشرك : مادام على شركه ، ومات عليه)

---

(١) آية ٤٨ من سورة النساء

بدليل قوله عليه الصلاة والسلام : « ألا ومن أشرك ، ألا ومن أشرك ، ألا ومن أشرك » لما سئل حين تليت « قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم » بعد أن قال عليه الصلاة والسلام : « ماأحب أن يكون لى الدنيا وما فيها بها » أى بهذه الآية . رواه الطبرانى والبيهقى ؛ وهو قريب من قوله صلى الله تعالى عليه وسلم : « وإن زنى وإن سرق » .

قلت : هذا إنما أجمع عليه الأمة . لكن يوهم إيراده الآية ، للجاهل بالرواية والدراية : أن القائلين بكفر فرعون استدلوا بها ، وأطلقوا الحكم فيها وهو باطل ، لا يقول به إلا عاطل .

قال (بدليل قوله عليه الصلاة والسلام : « ألا ومن أشرك ، ألا ومن أشرك ، ألا ومن أشرك » لما سئل ، حين تليت « قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم[1] » ، بعد أن قال عليه الصلاة والسلام « ما أحب أن يكون لى الدنيا وما فيها بها » أى بهذه الآية : رواه الطبرانى والبيهقى » .

قلت : هذا أمر ليس فيه نزاع ، بل قام عليه الإجماع : أن المشرك إذا آمن وتاب ، أمن من العقاب ، وحصل له الثواب ، لكن بشروطه المعتبرة فى الباب :

منها : عدم اليأس ورؤية العذاب ، وهذا هو المتنازع فيه ، فادخال ماعداه ليس من شأن النبيه .

قال (وهو قريب من قوله صلى الله تعالى عليه وسلم : « وإن زنى وإن سرق ») وفيه أن هذا وهم محقق ، لأن المراد بقوله : « وإن زنى وإن سرق » أن المؤمن

وأما قوله « ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم » فدليل لنا لاعلينا ؛

— ولو زنى ، ولو سرق — دخل الجنة ؛ لأنه حصل له شجرة الإيمان ووصل إلى ثمرة المحبة !

بخلاف الآية : فانه صلى الله تعالى عليه وسلم ذكر « ألا ومن أشرك » دفعاً لتوهم أن المشرك ليس داخلا تحت النهى عن القنوط ، فافهم الفرق لئلا تقع فى الأغلوط (١)

قال (وأما قوله « ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم » فدليل لنا لاعلينا)

قلت : قدمنا أنه دليل لنا ، وما يتعلق به من حوالينا ، لكن جوابه راجع الينا ، ورده سهل لدينا .

وبيانه : أن موسى وهارون عليهما السلام ، بعد يأسهما من فرعون وقومه اللئام ؛ دعوا عليهم بقساوة قلوبهم ؛ حتى لايؤمنوا إلا بعد رؤية العذاب بالمعاينة ؛ حتى لاتحصل لهم المنفعة . ولا شك أن دعاءهما مستجاب ؛ لأن كل نبى مجاب !

وقال تعالى « قد أجيبت دعوتكما » قيل . كان أربعون سنة بين دعائهما وإجابتهما . وإليه الإشارة بقوله تعالى « فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لايعلمون »

---

(١) الأغلوطة والمغلطة : الكلام يغلط فيه . هذا وقد شغف المؤلف ـ أثابه الله تعالى ـ بالسجع ، وتكلف فيه ماثقل على السمع ؛ ولا بدع فقد كان هذا أسلوب دهره ، وديدن أهل عصره ؛ فاتبع سيرتهم ، وسلك طريقتهم .

هذا وقد سئل أحد الأدباء السابقين : ما ألطف السجع ؟ قال : ماخف على السمع . قيل : مثل ماذا ؟ قال : مثل هذا . وهذا السجع الذى بين أيدينا : ليس مما لطف ، وليس مما خف .

فإن الاستجابة إنما هى فى حق فرعون ؛ فانه ما آمن إلا هو لما عاين الغرق ؛ فكان الغرق : هو العذاب الأليم فى حقه .

وأما قومه فإنهم ما آمنوا لما رأوا الغرق ؛ فكان العذاب الأليم فى حقهم يوم القيامة .

بل قال البيضاوى فى قوله تعالى «أدخلوا آل فرعون أشد العذاب» هو الغرق . مع أنهم ما آمنوا ؛ فلا يكون الاستجابة لقوله تعالى « فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم » فى حقهم .

أى الذين يستعجلون فيما يطلبون .

قال (فان الاستجابة إنما هى فى حق فرعون ، فانه ما آمن إلا هو لما عاين الغرق) .

قلت : هذا حصر باطل ؛ لأنه لايحيط بعلمه عاطل ؛ على أنه قدمنا أن إيمان اليأس لكل كافر حاصل ؛ وتخصيص الشيء بالذكر : لايلزم منه نفى ماعداه ؛ مع أن استجابته فى حق فرعون كافية فى المدعى مالا يخفى .

قال (فكان الغرق : هو العذاب الأليم فى حقه . وأما قومه فانهم ما آمنوا لما رأوا الغرق ؛ فكان العذاب الأليم فى حقهم يوم القيامة)

قلت : لاطائل تحته إلا الملامة.

قال (بل قال البيضاوى فى قوله تعالى « أدخلوا آل فرعون أشد العذاب » هو الغرق ؛ مع أنهم ما آمنوا ؛ فلا يكون الاستجابة لقوله تعالى « فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم » فى حقهم) وفيه أن الجواب ، سبق على وجه الصواب ؛ مع أن هذا النقل عن البيضاوى خطأ فى الكتاب ؛ فان عبارته رحمه الله « فوقاه الله » أى مؤمن آل فرعون « سيئات ما مكروا » : وقيل الضمير لموسى « وحاق بآله

وأما قوله تعالى « أدخلوا آل فرعون أشد العذاب » فلا دلالة فيه لدخوله النار ؛ فان المضاف غير المضاف اليه .

فرعون » أى بفرعون وقومه ؛ واستغنى بذكرهم عن ذكره : للعلم بأنه أولى بذلك « سوء العذاب » أى الغرق « النار يعرضون عليها غدوا وعشيا »[1] عرضهم على النار : إحراقهم بها ؛ وذكر الوقتين : يحتمل التخصيص والتأبيد . وفيه دليل على بقاء النفس ، وعذاب القبر « ويوم تقوم الساعة » أى هذا مادامت الدنيا . فاذا قامت الساعة : قيل لهم « ادخلوا آل فرعون أشد العذاب[2] » عذاب جهنم ؛ فانه أشد مما كانوا فيه ، أو أشد عذاب جهنم . وقرأ نافع ، وحمزة ، والكسائى ، ويعقوب ، وحفص « أدخلوا آل فرعون أشد العذاب » على أمر الملائكة بادخالهم النار ، انتهى

فتأمل فيه ، وانظر كلام مخالفيه فى اللفظ

وبه أيضا يندفع ماقاله الجلال (وأما قوله تعالى « أدخلوا آل فرعون أشد العذاب » فلا دلالة فيه لدخوله النار ، فان المضاف غير المضاف اليه)

فيه أن هذا مما لايحتاج الكلام عليه ؛ لوضوحه عند قارئ العوامل ، بل عند راعى الحوامل[3]

---

(١) « النار يعرضون عليها غدوا وعشيا » : فى الدنيا . جاء فى الصحيحين ؛ عن ابن عمر ، عن سيد البشر ؛ صلوات الله تعالى وسلامه عليه : « إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشى : إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة . وإن كان من أهل النار فمن أهل النار ؛ فيقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله تعالى »

(٢) بصيغة الأمر لآل فرعون بدخول النار . وهى قراءة على كرم الله تعالى وجهه ، والحسن ، وقتادة ، وابن كثير ، وغيرهم ؛ وهى قراءة شاذة

(٣) الحوامل : أراد أن يجمع به الحمولة ـ خطأ ـ والحمولة ما احتمل عليه القوم : من بعير

ألا ترى أنك إذا قلت : ضربت غلام زيد . دل على أن زيداً ليس بمضروب .

ثم من الغريب أنه بينه بالمثال ، لإظهار الحال فقال .

(ألا ترى أنك إذا قلت : ضربت غلام زيد ؛ دل على أن زيداً ليس بمضروب)

وهذا خطأ فاحش : لأنه لادلالة على نفى ضرب زيد أصلا ؛ لا عقلا ، ولا نقلا ؛ بل هو مسكوت عنه ، ويعرف حكمه من دليل آخر يكون فصلا .

ثم كلام العلماء والفضلاء : ليس فى كل مضاف ؛ بل فى أن لفظ « آ ل » كثيرا مايقع مقحما ، كما فى قوله تعالى « وبقية مما ترك آل موسى وآل هرون » أى أنفسهما ؛ على ماصرح به البغوى ، والقاضى ، وغيرهما .

وقد يراد بآ ل فلان : هو وآله ، وعليه ماورد فى القرآن : من آ ل فرعون ؛ كقوله « وإذ نجيناكم من آ ل فرعون » « وأغرقنا آ ل فرعون »

وقوله « ولقد أخذنا آ ل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون [(١)] » إلى أن قال « فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات [(٢)] » فانه لاشك أن فرعون مشارك معهم فى جميع الحالات ، فجمهور المفسرين ، وعامة المحققين ، قالوا فى قوله تعالى « وأغرقنا آل فرعون » أراد به فرعون وقومه ؛ واقتصر على ذكرهم ، للعلم بأنه كان أولى به .

وقيل : أريد بـ« آل فرعون » شخصه ، كما روى عن الحسن أنه كان يقول اللهم صل على آ ل محمد ، أى شخصه .

= وحمار ونحوه . قال الشاعر :

وحلت بيوتى فى يفاع ممنع يخال به راعى الحمولة طائرا

أما الحوامل : فجمع الحامل ، والأرجل

(١) آية ١٣٠ من سورة الأعراف

(٢) آية ١٣٣ من سورة الأعراف

وكذا قوله « فأوردهم النار » أى صيّرهم واردين : فانه السبب ، ولئن سلم دخول النار : فهو سبب ظلمه العباد .

واستغنى بذكره عن ذكر أتباعه [1]

وكذا قوله صلى الله تعالى عليه وسلم « اللهم صل على آل أبى أوفى » حين جاءه أبو أوفى بالصدقة : امتثالا لقوله تعالى « وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم [2] » وزيادة للإحسان اليه ، حتى أدخل آله فى الصلاة عليه .

هذا ولم يقل أحد بأن المراد به فرعون وحده ، حتى يتوجه اعتراض الشارح : بأنه لو أريد بآل فرعون : نفس فرعون ، لم يصح قوله « أدخلوا آل فرعون » بصيغة الجمع .

قال (وكذا قوله « فأوردهم النار » أى صيرهم واردين ؛ فانه السبب) يعنى فلا يلزم من دخولهم المسبب عن إضلاله : دخوله .

وفيه : أنه يلزم بطريق البرهان فى الاستدلال ، فان دخول المضل أولى من دخول الضال ؛ لجمعه بين الضلالة والإضلال .

هذا مع أن ماقبله ينادى على عذابه قبلهم ، حيث قال تعالى « يقدم قومه » أى يتقدمهم « يوم القيامة » إلى النار ، كما كان يقدمهم فى الدنيا إلى الضلال والبوار

ثم قال تعالى « وأتبعوا » أى هو وقومه « فى هذه لعنة ويوم القيامة » أى يلعنون فى الدنيا والآخرة :

قال (ولئن سلم دخول النار ؛ فهو سبب ظلمه العباد)

---

(١) لعله أراد : واستغنى بذكر أتباعه عن ذكره ؛ لأن الآية تقول « وأغرقنا آل فرعون » والمؤلف يريد أن يقول : استغنى بذكر آل فرعون عن فرعون

(٢) آية ١٠٣ من سورة التوبة . والمراد بالسكن فى الآية الكريمة : الرحمة والبركة .

وليس فى القرآن ، ولا فى السنة دليل صحيح يدل على التخليد .

قال شارح الفصوص : من إضلاله قوما غير محصورين ، وقتله أولاد بنى إسرائيل واسترقاقهم ، وغير ذلك .

وكونه إماما داعيا إلى النار [١] : بما تقدم منه من الكفر والظلم ، الذى صار سنة منه لمن بعده ؛ فكان ذلك أيضا من حقوق الخلق . انتهى .

وسخافته — حيث لم يفرق بين الخالق والخلق — لاتخفى [٢] .

وقد عرفت بما سبق : أن ظلم العباد معفق [٣] عمن أسلم بعد العناد .

وعلى التسليم فى بعض الحقوق والأسباب كيف يتصور تقدم الفاجر على الكافر فى العذاب .

قال (وليس فى القرآن ، ولا فى السنة دليل صحيح يدل على التخليد) .

قلت : الكتاب والسنة مشحونان من الدليل على تخليد من كفر فى النار ، ولا يلزم تخصيص كل واحد من الكفار .

وقد ثبت كفره سابقا ولاحقاً بالكتاب والأخبار ، عند العلماء الأخيار ، ولا يضرهم تردد بعض من لاعلم عنده من الفجار [٤] !

---

(١) يعنى قوله تعالى « وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار ويوم القيامة لاينصرون » آية ٤١ من سورة القصص .

(٢) يريد أن الإضلال والكفر : من حق الخالق لا الخلق

(٣) هكذا بالنسخة الوحيدة التى بأيدينا ؛ ولعلها محرفة عن لفظة : معفو ؛ كما جاء بعدذلك وجاء فى كتب اللغة : عفق يعفق : إذا غاب ، وعفق العمل : لم يحكمه ، وعفق الشىء : جمعه . وكل راجع مختلف كثير التردد : عافق . وعفق الغنم : ردها عن وجوهها . وتعفق بفلان : لاذ به

(٤) وصف المؤمنين بالفجار : ليس من شيمة العلماء الأخيار ؛ وكلا الفريقين مثاب باجتهاده وإن اخطأ ! فللمخطىء أجر ، وللمصيب أجران .

وأما قوله تعالى « فأخذه الله نكال الآخرة والأولى » فان النكال أتى بمعنى القيد ، وأتى بمعنى العذاب .

وأى قيد أعظم ـ لمن ظلم العباد فى الدنيا ـ من الغرق ؟ وفى الآخرة « يقدم قومه » ـ من الفضيحة بين الخلائق !

قال (وأما قوله تعالى « فأخذه الله نكال الآخرة والأولى[1] » فان النكال أتى بمعنى القيد ، وأتى بمعنى العذاب . وأى قيد أعظم لمن ظلم العباد فى الدنيا من الغرق ؟ وفى الآخرة « يقدم قومه » من الفضيحة بين الخلائق) .

أقول : هذا كلام ساقط الاعتبار ، فى نظر النظار : فان قوله تعالى « فأخذه الله » بمعنى : عاقبه بالوعيد ، وإن أخذه أليم شديد !

ثم قوله « نكال » النكال أتى بمعنى القيد : غير سديد ؛ إذ المشهور فى اللغة : أن النكل بالكسر : قيد من نار ، أو القيد الشديد ، وجمعه أنكال . ومنه قوله تعالى « إن لدينا أنكالا »

وتقدم : أن ظلم العباد معفو عن الكافر فلا يعاقب عليه : لا فى الدنيا ، ولا فى العقبى

مع أنه لا يعرف أن الله تعالى عاقب أحدا فى الدنيا على ظلم العباد ؛ لاسيما إذا أسلم وانقاد ، وترك العناد .

وكذا قوله : « وأتى » بمعنى العذاب : غير معروف ؛ فى القاموس : نكل[2] عنه ،

---

(١) آية ٢٥ من سورة النازعات

(٢) جاء فى كتب اللغة : النكل ؛ بكسر النون المشددة : القيد الشديد . والنكال : ما نكلت به غيرك . ونكل به : صنع به صنيعا يحذر غيره ، وجاء أيضا أن النكل بالكسر : قيد من نار ، وضرب من اللجم ، وحديدة اللجام والزمام . ونكل به =

. . . .

كضرب، ونصر، وعلم؛ نكولا [1] : نحاه عما قبله . والنكال، والنكلة بالضم، والمنكل؛ كمقعد: ما نكلت به غيرك؛ كائنا ما كان .

وكذا قال البيضاوى: قوله تعالى « فأخذه الله نكال الآخرة والأولى » أى أخذاً منكلا لمن رآه أو سمعه: فى الآخرة بالإحراق، وفى الدنيا بالإغراق . أو على كلمته الآخرة: وهى هذه، يعنى: « أنا ربكم الأعلى » وكلمته الأولى: وهى « ماعلمت لكم من إله غيرى » أو للتنكيل فيهما، أو لهما، ويجوز أن يكون مصدراً، مؤكداً . مقدراً بفعله .

وفى تفسير البغوى: قال الحسن وقتادة: عاقبه الله، وجعله « نكال الآخرة والأولى » أى فى الدنيا بالغرق، وفى الآخرة بالنار .

وقال مجاهد، وجماعة من المفسرين: أراد بالآخرة والأولى: كلمتى فرعون، وكان بينهما أربعون سنة . انتهى .

= —من باب قتل— نكلة قبيحة: أصابه بنازلة . ونكل بالتشديد: مبالغة: والاسم: النكال .

وبذلك يزول الاختلاف، ويصدق الانتصاف، بعد الاعتساف؛ ويتحقق قول الفريقين: المتخاصمين فى غير خصومة، المجاهدين فى غير عدو!

(1) جاء فى القاموس، بعد « نكولا »: نكص وجبن . ونكل به تنكيلا: صنع به صنيعاً يحذر غيره . أو نكله . نحاه عما قبله . . . الخ ما أورده المؤلف .

وبذلك يكون قد أخفى من قول القاموس مالا يتفق ووجهة نظره؛ فقول القاموس: صنع به صنيعاً يحذر غيره: أى عذبه تعذيباً شديداً؛ ليكون عبرة لغيره . وما كذلك تكون أمانة العلم، ولا خلق العلماء؛ بل الأمانة العلمية تقتضى إيراد الدليل — لك أو عليك — بغير ما تحريف ولا تصحيف .

وإذا عرفت ذلك : عرفت أن كلام الروضة لا يكون دليلا ؛ فإن فرعون ماقال ذلك وحركته حركة مذبوح ؛ لما تقدم . مع أنه لادليل قطعى على أنه ما كان يحسن السباحة ، ولا على عدمها .

وقد بدع [1] الشارح ، وخاب وأخاب [2] ؛ بما خرج به عن صوب الصواب ، بأن المؤاخذة على الكلمتين : إنما هى مؤاخذة دنيوية على كفر سابق .

وهو مخالف للإجماع على أن الايمان اللاحق ، يمحو الكفر السابق ، فانه من حق الخالق . بل الصواب أنه يَجُبُّ أيضا حق الخلائق .

ثم قال (وإذا عرفت ذلك : عرفت أن كلام الروضة لا يكون دليلا ؛ فان فرعون ماقال ذلك وحركته حركة مذبوح لما تقدم)

وحاصل كلامه : دفع ماذكره العلماء الكرام ، من صاحب الروضة وغيره من الفقهاء العظام ، فى أن سبب عدم قبول إيمان فرعون ، مع إظهار الإسلام : أنه ألجىء إلى الإيمان والإيقان ، حيث لاقدرة له على التصرف فى نفسه بعد العيان ، وهذا هو المعنى فى عدم اعتبار إيمان اليأس عند أرباب الإتقان .

وقد ذكر الإمام حجة الإسلام : أن المحتضر حال النزع ، عند مشاهدة ناصية ملك الموت : ينكشف له مافى اللوح . فتصير العلوم النظرية ضرورية . انتهى .

وبه يظهر سخافة عقل الجلال :

حيث قال (مع أنه لادليل قطعى على أنه ما كان يحسن السباحة ، ولا على عدمها)

---

(١) بدع : من الابتداع ؛ لا الابداع . والابتداع : الإحداث فى الدين ماليس فيه ؛ تبعاً للأهواء الفاسدة . وبدعه نسبه إلى البدعة .

(٢) وخاب وأخاب : أراد وقع فى الباطل . وأوقع من تبعه . وهى من خاب يخيب خيبة . ولم نجدها متعدية بالهمز ؛ ولكنه السجع الممجوج : أراد أن يجمع به بين أخاب ، وصوب الصواب .

وبالجملة فالآيات غير « آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل » محتملة : والشيء إذا طرقه الاحتمال : سقط منه الاستدلال .

ويقرب منه ما أجاب به شارح الفصوص ، عن مفهوم النصوص ؛ مما لا ينبغى ذكره عند العوام على الخصوص .

قال (وبالجملة فالآيات غير « آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل » محتملة) .

وفيه أن الآيات مصرحة ، غير « آمنت » فانها موهمة غير مصححة ؛ فلا يلتفت إليها ، ولا يبنى الحكم عليها .

وقوله (والشيء إذا طرقه الاحتمال ، سقط منه الاستدلال) حجة عليه ، إذ جعله دليلا لما ذهب اليه ، وإلا فقد ثبت كفره ابتداء بالإجماع ، وحكم الانسحاب معتبر بلا نزاع ، فالمدعى إلى إيمانه ، يحتاج إلى بيانه ، والإثبات بدليله وبرهانه ، فانا مانعون عن إيقانه بالمدافعة ، مستمسكين بالأدلة القواطع ، منها ما سبق فى أثناء ما سبق من الكلمات الجوامع .

ومنها : أن مقصود فرعون بهذا الإيمان : دفع العذاب الدنيوى لا نفس الإيقان ؛ وقد فهمت أيضا مما سبق إن كنت من أهل العرفان .

وأغرب من خالف النصوص ، من شراح الفصوص ؛ حيث قال : وقد قالوا : إن نية التبرد : لا يضر بالنية المعتبرة فى الوضوء . انتهى .

ولا يخفى أنه إن أراد نية التبرد : كانت كافية فى النية المعتبرة للصحة أو المثوبة ، وهو مخالف الإجماع ؛ لعدم صحة الوضوء حينئذ عند الشافعية وأتباعهم ، ولعدم الثواب المترتب على سنية النية عند الحنفية وأشياعهم .

وإن أراد انضمام نية التبرد لا يضره فليس الكلام فيه ، ليقال : إنه يوافقه أو ينافيه .

. . . .

والحاصل أن المانع لإيمانه ، يكفيه عدم تحقق إتيانه ، بخلاف المثبت فإنه يحتاج إلى دليله وبرهانه .

ومنها : أن عدم اليأس وضيق الحال ، وشتات البال : لا يمكن للعبد الاستدلال .

وهذا إنما هو عند جمع من الفقهاء المعتبرين ، وبعض من فضلاء المتكلمين ؛ وإنما الجمهور منهم — ومنهم الأشعرى — أن إيمان المقلد صحيح ، وفعله صلى الله عليه وسلم مع أصحابه رضى الله تعالى عنهم دليل صريح .

نعم حكى الأشعرى أن تارك الاستدلال . عاص بكل حال ؛ فليس إيمان المقلد على وجه الكمال .

ثم المقلد : إنما هو من نشأ فى بادية ، أو شاهق جبل ومفازة . وفى الحال الضائع ، لم يتفكر فى العالم والصانع ا

وأما قول المعتزلة : لا يكون مؤمنا ؛ مالم يعرف كل مسألة بحجة عقلية يمكن معها دفع الشبهة النفسية . فبطلانه يكاد يلحق بالأمور الضرورية ، لكون أكثر أهل الإسلام قاصرين ، أو مقصرين ؛ ولم تزل الصحابة وغيرهم من المجتهدين ؛ يجرون عليهم أحكام المسلمين !

ومنها : ماروى الإمام أحمد بن حنبل ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ؛ أنه ذكر الصلاة يوماً فقال : « من حافظ عليها : كانت له نوراً ، وبرهانا ، ونجاة يوم القيامة . ومن لم يحافظ عليها : لم تكن له نوراً ، ولا برهانا ، ولا نجاة . وكان يوم القيامة مع قارون ، وفرعون ، وهامان ، وأبىّ بن خلف »

ومنها : قوله تعالى فى قارون ، وفرعون ، وهامان : « ولقد جاءهم موسى بالبينات

. . . .

فاستكبروا فى الأرض وما كانوا سابقين [١] » أى فائتين عذابنا « فكلا » أى المذكورين « أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا » كقوم لوط « ومنهم من خسفنا به الأرض » كقارون « ومنهم من أغرقنا » كقوم نوح ، وفرعون وقومه .

ولا يعرف ـ معقولا ولا منقولا ـ إدخال من مات على الإيمان ، مع من أصر على البطلان ؛ فى التعذيب الدنيوى والأخروى سيان .

ومنها : ما علم بالاضطراد فى الملل : أنه أكفر الخلق ، وأنكر الحق ، وانعقد عليه الإجماع . وامتلأ بذمه الألسنة والأسماع ؛ حتى كره اسمه فى الطباع .

ومنها . أنه لم يحصل الإيمان لفرعون : لكونه من الدهرية [٢] ؛ فمثل هذا الاعتقاد الفاحش لاتزول ظلمته إلا بنور الحجة القطعية ؛ وهو إنما ضم ظلمة إلى ظلمة ، ولذا لم يقل : آمنت بالله ، وإنما قال : « آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل » فكأنه اعترف أنه لايعرف الله ، إلا أنه سمع أن بنى إسرائيل أقروا بوجوده .

وأما ما أجاب به : بأن الحليمى [٣] نقل إجماع العلماء على قبول إيمان الدهرى ؛ بإقراره وتصديقه بمجرد وجود الصانع .

---

(١) آية ٣٩ من سورة العنكبوت

(٢) الدهرى : هو الملحد الذى يقول بأن العالم موجود أزلا وأبداً ؛ والدهريون : هم الذين وصفهم الله تعالى بقوله : « وقالوا ماهى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ومايهلكنا إلا الدهر »

(٣) هو أبو عبد الله الحسين محمد بن الحسن ابن حليم ؛ البخارى الجرجانى من فقهاء الشافعية . وقد ولى القضاء ، وكان رئيس أهل الحديث فيما وراء النهر . ولد بجرجان وله تصانيف كثيرة ؛ منها « منهاج الدين » فى ثلاثة أجزاء وتوفى فى بخارى عام ٤٠٣ هجرية

وأما من يقول بكون الشيخ محي الدين بن عربي من الملحدين : فجهل ينادى عليه بالإلحاد.

ونقله إمام الحرمين (١) عن الأكثر ، وصححه البغوى : فهو محمول على أن الحكم بالظاهر والله أعلم بالسرائر .

ثم رأيت شارحا للفصوص ، تكلم فى هذه المسألة معارضا للنصوص ، آتيا بكلام متعارض يظهر بطلانه للعموم والخصوص.

وهو أن المؤاخذة على الكفر السابق ، كان قبل هذا الإيمان ، فلا يجبهما هذا الإيمان . وإنما يجب مابعده من المؤاخذة الأخروية .

والمؤاخذة الدنيوية على الكفر : لايستلزم المؤاخذة الأخروية : إذ آمن بعد هذه المؤاخذة ، قبل معاينة الأمور الأخروية .

ثم قاس بعقله الكاسد ، بالقياس الفاسد ، قائلا : فان أسر الكافر واسترقاقه : مؤاخذة على كفره بعد الإيمان ، إذ لايعتق بمجرد الإيمان ، لكنه لايؤاخذ بذلك الكفر فى الآخرة . انتهى .

وبطلانه لايخفى !

ثم قال الجلال (وأما من يقول : بكون الشيخ محي الدين بن العربي من الملاحدين ، فجهله ينادى عليه بالإلحاد) أى بالميل عن طريق الحق إلى صوب العناد .

---

(١) إمام الحرمين : هو عبد الملك ، بن عبد الله ، بن يوسف الجوينى : أعلم المتأخرين من أصحاب الشافعى على الاطلاق ؛ ولد فى جوين « من نواحى نيسابور » ورحل إلى بغداد ، فمكة ؛ حيث جاور فيها أربع سنين ، وذهب إلى المدينة ، ثم عاد إلى نيسابور ؛ وسمى بامام الحرمين : لأنه أم المصلين — مدة طويلة — بالحرمين الشريفين « البيت الحرام ، ومسجد الرسول عليه الصلاة والسلام » وله مؤلفات عدة ؛ منها « مغيث الخلق ، فى ترجيح القول الحق » انتصر فيه لمذهب الشافعى ، طاعنا فى مذهب أبى حنيفة النعمان . ولد عام ٤١٩ وتوفى بنيسابور عام ٤٨٨ هجرية

حيث تكلم فيمن لايصل إلى كنه كلامه أساطين العلماء ونحارير الفضلاء ، وعجزت أفكارهم عن فهم أسراره . قدس سره

والعجب أنه تكلم بما لايعلم ، حيث لم يعرف اصطلاحهم ، ومن لم يعرف شيئا أنكره

قال (حيث تكلم فيمن لايصل إلى كنه كلامه أساطين العلماء وسلاطين (١) الفضلاء) .

أقول : أما علماء الظاهر : فلعدم معرفة أكثرهم باصطلاح الصوفية . وأما علماء الباطن : فلأن الغالب عليهم عدم الاضطلاع بالقواعد العربية . لاسيما وقد دققت إشاراته ، بعد ماحققت عباراته .

ولذا قال (وعجزت أفكارهم عن فهم أسراره ، قدس سره ! والعجب أنه) أى المنكر (تكلم بما لايعلم ، حيث لم يعرف اصطلاحهم ، ومن لم يعرف شيئا أنكره) .

قلت : ليس فيما سبق شيء من مصطلحات الصوفية ، وإنما هو مباحث فى الآيات القرآنية ، بالاصطلاحات العربية ، والقواعد الكلامية .

نعم أنكر عليه جمع فى بعض الكلمات الفصوصية ، وبعض العبارات الفتوحية ، التى بظاهرها غير مطابقة للقواعد الحقية ، غافلين عن الاصطلاحات الصوفية : من الدلالات الرمزية ، والإشارات السرية ، والعبارات الدقيقة الخفية ، الله أعلم بما أراد القائل بها فى النية ، من المقاصد الدينية ، أو المطالب الدنية .

---

(٢) فى سائر نسخ المتن « ونحارير الفضلاء » جمع نحرير . وهو الحاذق ، الماهر العاقل ، المجرب المتقن ، الفطن ، البصير بكل شيء ، لأنه ينحر العلم نحراً . ولكن الشارح غلبه سجعه ـ كعادته ـ فوامم بين أساطين وسلاطين فى نسخة المتن

والشيخ يعنى بذلك : سعة رحمة الله تعالى وهذا القائل يقول : بعدم سعة رحمة الله، ويقنط عباده ، ويحثهم على الياس من روح الله ، و « لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون »

قال (والشيخ يعنى بذلك سعة رحمة الله تعالى ، وهذا القائل يقول بعدم سعة رحمة الله ، ويقنط عباده ، ويحثهم على اليأس من روح الله ، و« لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ») .

وهذا كلام نشأ من كمال ضلال الجلال ، حيث نسب جمهور العلماء — على زعمه — إلى أنهم ينكرون سعة رحمة الله تعالى ، ويقنطون عباده ، ويحثونهم على اليأس من رحمة الله ، وهذا كفر صريح ، على تقدير ثبوته عنه ، وعدم توبته منه !

وأما الشيخ : فهو معتمد الأجلة من المشايخ السنية ، لاسيما السادة النقشبندية[1] والقادة الشاذلية[2] ، ومعتقد معظم الأئمة من العلماء ، الحنفية ، والشافعية ،

---

(١) السادة النقشبندية : من أفاضل الصوفية ، ومن أجلة الهداة ، وطريقتهم : ذكر الله بالقلب والوجدان ، بغير ما حاجة إلى اللسان ، وقد نشأت هذه الطريقة بالعراق ببلاد الكرد . قيل : إن سبب تسميتها بذلك أن رئيسهم رضى الله تعالى عنه ظل يذكر الله بقلبه ، فى نومه وصحوه : حتى ظهر على صدره منقوشاً بخط القدرة الإلهية الاسم الأعظم « الله » فرآه بعض مريديه ، فقال النقش بان ، النقش بان ، وصار يرددها بوجد وجذب ، فصارت نسبة لهم .

(٢) الشاذلية : نسبة إلى سيدى العارف بالله أبى الحسن الشاذلى ، شيخ الطائفة الشاذلية . وهو منسوب إلى شادلة ، أو شاذلة : قرية بالمغرب . وفى الشاذلية يقول أبو العباس بن عطاء

تمسك بحب الشاذلية تلق ما ترومٍ فحقق ذاك منهم وحصل
ولا تعدون عيناك عنهم فإنهم شموس هدى فى أعين المتأمل

وكفاهم فخراً : أن من أتباعهم : سيدى أبى العباس المرسى ، والإمام البوصيرى ، رضى الله تعالى عنهم أجمعين ونفعنا بهم !

. . . .

والمالكية ، والحنبلية .

ومنهم أستاذنا الأعظم ، واستادنا الأكرم ، واستنادنا الأفخم ، وواسطة عقد العلاقة البكرية ، المبدع للعوارف البكرية ، السارية على لسانه ، الجارية على جنانه ، أزمنة العشية والبكرية . مولانا الشيخ شمس الدين محمد البكرى ، قدس الله تعالى سره السرى ، المعروف من طريق الجنيد (١) والسرى (٢) ، نفعنا الله تعالى بعلومهم فى الدنيا وحشرنا تحت أعلامهم فى العقبى ، فانه كان يعظم الشيخ فى مجالسه الشريفة ، ويذكره بمحاسنه المنيفة !

---

(١) الجنيد : هو أبو القاسم ، بن الجنيد ، بن محمد ، ولد بالعراق ، وأصله من نهاوند . وقد كان شيخ وقته ، وإمام عصره : فى الزهد ، والتصوف . تفقه على أبى ثور — صاحب الامام الشافعى — وقيل كان على مذهب سفيان الثورى .

ومن كلامه : ما أخذنا التصوف عن القيل والقال ولكن ؛ عن الجوع ، وترك الدنيا وقطع المألوفات والمستحسنات . ومن كلامه أيضا : الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى أثر الرسول عليه الصلاة والسلام . توفى سنة ٢٩٧ هجرية

(٢) السرى : هو السرى السقطى : كان أوحد أهل زمانه فى التوحيد ، والتصوف ، وهو إمام أهل الورع ، كان معاصراً للجنيد فى أواخر القرن الثالث الهجرى .

ومن كلامه فى التصوف : التصوف اسم لثلاث معان : وهو الذى لا يطفىء نور معرفته نور ورعه ، ولا يتكلم بباطن فى علم ، ينقضه عليه ظاهر الكتاب أو السنة ولا تحمله الكرامات على هتك أستار محارم الله !

رأى الامام جلال الدين السيوطى

فى سيدى محيى الدين بن العربى

وقد صنف شيخ مشايخنا، عمدة الحفاظ المحدثين، وخاتمة أئمة المجتهدين، وزبدة العلماء العاملين: جلال الدين السيوطى رسالة سماها «تنبيه الغبى، فى تنزيه ابن العربى» مصدرة بقوله:

مسألة فى ابن العربى، وما حاله؟ وفى رجـــل أمر باحراق كتبه، وقال: إنه أكفر من اليهود والنصارى ومن ادعى لله ولدا، فما يلزمه فى ذلك؟

الجواب: اختلف الناس — قديماً وحديثاً — فى ابن العربى.

ففرقة: تعتقد ولايته — وهى المصيبة — ومن هذه الفرقة: الشيخ تاج الدين ابن عطاء الله - من أئمة المالكية - والشيخ عفيف الدين اليافعى، فانهما بالغا فى الثناء عليه، ووصفاه بالمعرفة.

وفرقة تعتقد ضلاله [1]؛ ومنهم طائفة كثيرة من الفقهاء.

وفرقة، شكت فى أمره، ومنهم الحافظ الذهبى فى الميزان.

وعن الشيخ عز الدين بن عبد السلام فيه كلامان: الحط عليه، ووصفه بأنه القطب!

---

(١) كثيراً ما أصيب العارفون ببلايا ورزايا ومحن - يرونها هم من ربهم مننا جساماً - فمنهم من رمى بالزندقة، ومنهم من رمى بالكفر، ومنهم من رمى بالعقائد الفاسدة وهم هداة الأنام، وحملة الشريعة والحقيقة، ومن قبل رموا الحلاج بالكفر، وقتلوه بحد السيف، فنزل دمه الزكى الطاهر على الارض يشهد بإيمانه وكفر قاتليه. قيل: إن دمه الطاهر سال على الأرض كاتباً: لا إله إلا الله. شهادة له وتكرمة من الله! وقيل إنه رؤى فى المنام مستغفراً لقاتليه. رضى الله تعالى عنهم جميعاً، ونفعنا بحبهم

قال : وقد سئل شيخنا شيخ الإسلام . بقية المجتهدين : شرف الدين المناوى ، عن ابن العربى ؛ فأجاب بما حاصله : أن السكوت عنه أسلم !

وهذا هو اللائق بكل ورع يخشى على نفسه !

والقول الفصل عندى فى ابن العربى : طريقة لا يرضاها فرقتا أهل العصر : لا من يعتقده ولا من يحط عليه : وهى اعتقاد ولايته ، وتحريم النظر فى كتبه .

فقد نقل عنه أنه قال : نحن قوم يحرم النظر فى كتبنا .

وذلك أن الصوفية توافقوا على ألفاظ اصطلحوا عليها ، وأرادوا بها معانى غير المعانى المتعارفة منها .

فمن حمل ألفاظهم على معانيها المتعارفة بين أهل العلم : كفر ، أو كفر . نص على ذلك الغزالى فى كتبه ، وقال : إنه شبيه بالمتشابه فى القرآن والسنة : من حمله على ظاهره : كفر . وله معنى سوى المتعارف منه [1] .

فمن حمل آيات الوجه ، واليد ، والعين ، والاستواء [2] ؛ على معانيها المتعارفة : كفر قطعاً !

---

(١) حقاً إن كلام الأولياء لا يقاس بمقياس الفهم ، وأفعالهم لا تقاس بمقياس العلم ، فقد رأى موسى عليه السلام الخضر يقتل الغلام ، فأنكر عليه ذلك المنكر ؛ ولم يدر أن فى قتله لأبويه الحظ الأوفر !

(٢) آيات الوجه ، كقوله تعالى « فثم وجه الله . . ويبقى وجه ربك . . كل شىء هالك إلا وجهه » وآيات اليد ، كقوله تعالى « يد الله فوق أيديهم .. بيده ملكوت كل شىء .. بيده الملك » وآيات العين ، كقوله جل شأنه « ولتصنع على عينى . . واصنع الفلك بأعيننا » وآيات الاستواء ، كقوله عز من قائل « ثم استوى إلى السماء . . ثم استوى على العرش » فلا يفسر الوجه ، واليد ، والاستواء ، على حقيقته ، بل يؤول .
والإجماع على كفر من يقول بالتجسيد .

والمتصدى لتكفير ابن العربى ؛ لم يخف من سوء الحساب ، وأن يقال له : هل ثبت عندك أنه كافر ؟

فان قال : كتبه تدل على كفره ، أفأمن أن يقال له : هل ثبت عندك بالطريق المقبول فى نقل الأخبار ، أنه قال هذه الكلمة بعينها ، وأنه قصد معناها المتعارف ؟

والأول : لاسبيل اليه ، لعدم سند يعتمد عليه فى مثل ذلك .

ولا عبرة بالاستفاضة الآن ، إذ على تقدير ثبوت أصل الكتاب عنه ، فلا بد من ثبوت كل كلمة ، لاحتمال أن يدس فى الكتاب ماليس من كلامه ، من عدو أو ملحد .

والثانى : وهو أنه قصد بهذه الكلمة كذا : لاسبيل اليه أيضا ، ومن ادعاه كفره إذ أنه من أمور القلب ، التى لا يطلع عليها إلا الله !

وقد سأل بعض أكابر العلماء بعض الصوفية فى عصره : ماحملكم على أن اصطلحتم على هذه الألفاظ التى لا يستساغ ظاهرها ؟ فقال : غيرة على طريقنا هذا ، أن يدعيه من لا يحسنه ، ويدخل فيه من ليس من أهله .

والمتصدى للنظر فى كتب ابن العربى ، أو إقرائها : لم ينصح نفسه ، ولا غيره ، بل ضر نفسه ، وضر المسلمين كل الضرر ! لاسيما إن كان من القاصرين فى علوم الشرع ، والعلوم الظاهرة ، فانه يضل ويضل .

وعلى تقدير أن يكون المقرى لها عارفا ، فليس من طريقة إقراء المريدين كتب الصوفية ، ولا يؤخذ هذا العلم من الكتب .

وما أحسن قول بعض العلماء وقد سأله أحدهم أن يقرأ عليه تائية ابن الفارض[1]

---

(١) ابن الفارض : هو أبو حفص ، وأبو القاسم ، عمر ، بن أبى الحسن الحموى الأصل ، المصرى المولد والدار والوفاة ، وقد جاور بمكة المكرمة .

وكان من كبار الصوفية ، ومن خيرة الواصلين والمحبين ، له ديوان يحتوى على =

فقال له دع عنك هذا ، من جاع جوع القوم ، وسهر سهرهم : رأى مارأوا !

والواجب على الشاب المستفتى عنه :[1] التوبة ، والاستغفار ، والخضوع لله ، والإنابة إليه ، حذراً من أن يكون آذى ولياً لله ، فيؤذنه الله بحرب ! وإن امتنع من ذلك وصمم ، فتكفيه عقوبة الله من عقوبة المخلوقين ، وما عسى أن يصنع فيه الحاكم ؟

هذا جوابى فى ذلك والله أعلم . انتهى .

= بعض أشعاره ، وقد شغف رضى الله تعالى عنه بالتغزل فى الذات الإلهية ، بطريقته الخاصة التى أثارت عليه بعض من لم يتذوق الوجد ، فمن قائل بكفره ، ومن قائل بإلحاده ، وألطفهم من قال بجنونه ، وهو اتهام قل أن نجد من يتبرأ منه من الواصلين الهائمين !

وتائيته المذكورة تسمى بنظم السلوك ، بين المالك والمملوك ، وفيها مافيها من كلام القوم ، الذى استوجبوا عليه اللوم ، وقائلها مأجور ، ولائمه معذور ، ومكفره موزور . وهى زهاء سبعمائة وواحد وستين بيتا : ومطلعها

سقتنى حميا الحب راحة مقلتى وكأسى محيا من عن الحسن جلت

ومنها :

ولو أن مابى بالجبال وكان طو ر سينا بها قبل التجلى لدكت
فطوفان نوح عند نوحى كأدمعى وإيقاد نيران الخليل كلوعتى
ولولا زفيرى أغرقتنى أدمعى ولو دموعى أحرقتنى زفرتى
وحزنى ما يعقوب بث أقله وكل بلى أيوب : بعض بليتى

وقد توفى رضى الله تعالى عنه بمصر سنة ٦٣٢ هجرية ودفن بسفح جبل المقطم : بالقرب من قبر الإمام الشافعى رضى الله تعالى عنه

(١) أراد بالمستفتى عنه : الذى قال بأن ابن العربى أكفر من اليهود والنصارى ، ومن ادعى لله ولداً .

رأى الإمام ابن حجر العسقلانى

فى سيدى محي الدين بن العربى

ثم رأيت صورة فتوى شيخ الإسلام ، ملك المحدثين ، شيخ مشايخنا ، شهاب الملة والدين : أحمد بن حجر العسقلانى ، نفعنا الله بمدده وعلمه الربانى .

ماتقول ياسيدى للشيخ محي الدين بن العربى فى قضية فرعون وإيمانه ، الذى أشار اليه فى الفصوص ، وغيره ؟ فأجاب الشيخ :

بسم الله الرحمن الرحيم : اللهم احفظ لسانى من الافتراء والزلل ، وجنانى من الخطإ والخلل ؛ بحرمة نبيك محمد عليه الصلاة والسلام .

فاذا كان ذلك الفعل من المقدر عند الله تعالى وقوعه فى هذا المحل : سلب الله تعالى عن هذا العبد عقله ، ولم يعطه الاعتبار ، وأعماه حتى يظهر ذلك الفعل فى محله ، فاذا ظهر بحكم هذا الجبر الباطن : رد الله تعالى عقله ، عند موته واعتبر ، واستغفر ربه وخر راكعا وأناب !

وهذا معنى قوله صلى الله تعالى عليه وسلم « إن الله تعالى إذا أراد إنفاذ قضائه وقدره : سلب من ذوى العقول عقولهم » حتى إذا أمضى قدره فيهم : ردها عليهم ليعتبروا .

أما فى حضرة الشيخ ، فنقول : هو بحر مواج ، لاساحل له ، ولا يسمع لموجه غطيط[1] ، بل كلامه بكر صهباء ، فى لجة عمياء . الحاتمى الذى لا نعت يضبطه ، ولامقام يعينه .

من قال : إن له نعتا ، فليس له علم به عنده مبدوه مكنونه . وحسبنا الله

---

(١) يقال غطغط البحر : إذا علت أمواجه . وغط البعير غطيطاً : هدر

ونعم الوكيل ! وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ، انتهى .

والذى أعتقده فى الشيخ : ماقاله العلماء فى فتاويهم ، كالشيخ مجد الدين الفيروزابادى : صاحب القاموس ، والبيضاوى ، وغيرهما فى حقه .

الذى أعتقده وأدين الله تعالى به . أن الشيخ محي الدين بن العربى : إمام أهل الشريعة : علما ورسما ، ومربى أهل الطريقة : عملا وعلما ، وشيخ مشايخ أهل الحقيقة : ذوقا وفهما !

قال صاحب القاموس : وهو الذى فسر القرآن العظيم فى نيف وسبعين مجلداً ، حتى بلغ قوله عز وجل « وعلمناه من لدنا علما » ثم استأثر الله بقبض روحه عند هذه الكلمة الشريفة !

وهذا أعظم برهان ، وأتم دليل وبيان ، وأقوى حجة ، على أنه كامل موحد ، ولا ينكره إلا جاهل ، أو جاحد معاند !

وما على إذا ماقلت معتمدى   دع الجهول يظن العدل عدوانا
والله والله والله العظيم ومن   أقامـــه حجة لله برهـانا
كل الذى قلت بعض من مناقبه   مازدت إلا لعلى زدت نقصانا

الذى أعتقده أنا : أن الشيخ لم يرد إثبات إيمان فرعون بدليل ماسبق عنه فى الفتوحات المكية ، وإنما قصد أن الأدلة فى كفره ليست قطعية . ولهذا قال فى الفصوص : وأمره الى الله ، وهذا ليس فيه محظور يوجب كفره بلا اشتباه .

وغايته : أنه وقع له عزلة قلم ، أو لغزة قدم[1] ، حصل له بعده الانتباه ، كما هو شأن المحفوظين من أولياء الله

(١) اللغز بفتح اللام المشددة : ميلك بالشىء عن وجهه الصحيح .

وقد سئل سيد الطائفة ، جنيد البغدادى : هل العارف يزنى ؟ فأطرق مليا ثم قال : « وكان أمر الله قدراً مقدوراً »

مع احتمال ألا يكون من كلامه ، أو لا يكون المفهوم الظاهر فى مرامه ، فالتسليم أسلم ، والله أعلم !

خاتمة المؤلف

فرغ على يد مؤلفه المعترف بالجهل والتقصير ، كما هو مطلع على حال العالم بالنقير والقطمير ، فى شهر ربيع الأول سنة سبع بعد الألف .

والحمد لله العلى الأجل ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبى المكمل ، وعلى آله وأصحابه الكمل ، المشبهين بالوبل (١) !

(١) الوبل ، والوابل : المطر الشديد

فهرس

كتاب إيمان فرعون والرد عليه

تم الفهرس وبه تم الكتاب